
باهر بدوي
نفوس
قصص
كيان كور
دار ليلى

باهر بدوي

نفوس

كيان كورب
(دار ليلى للنشر والتوزيع)

الكتاب:
نفوس
المؤلف:
باهر بدوي
الغلاف:
محمد محمود
التنفيذ الفني:
حسام سليمان
التدقيق اللغوي:
ساره سالم
★★★
إدارة التوزيع:
عبد الله شلبي
الإشراف العام:
محمد سامي
★★★



رقم الإيداع: 2011/13686

الترقيم الدولي: 978-977-6386-39-6

المهندسين-23 شارع السودان-تقاطع مصدق-الدور الرابع-مكتب 11
هاتف: 33370042 (02) (002) - 3885295 (012) (002)
البريد الإليكتروني: mail@darlila.com الموقع الرسمي: www.darlila.com

باهر بدوي

نفوس

كيان كورب للنشر والتوزيع
دار ليلى

مقدمة الناشر

كانت دار ليلى (كيان كورب) منذ ما يزيد عن 4 سنوات، قد أطلقت مشروعها (النشر للجميع.. ولمن يستحق) والذي نال استحسان الكثير من المواهب وقتها، والتي أصبح البعض منها كتابًا محترفين بعد ذلك، أو توجهوا لمشروعات ثقافية متنوعة، لمعوا من خلالها..

ومع ازدياد كم الأعمال التي يبدعها الشباب – خاصة بعد ثورة يناير العظيمة– وفي ظل الظروف الحالية التي تمر بها مصر، أصبح سوق النشر والتوزيع في حالة ضعيفة، خاصة مع استمرار ازدياد أسعار الخامات، وإحجام كثير من دور النشر على ممارسة نشاطها بتوسع، وضعف القدرة الشرائية للقارئ المصري، كذلك صارت عملية النشر محفوفة بالمخاطر، التي تخيف طرفيها – الناشر والقارئ – على حد سواء.. وكانت الدار نفسها من الدور التي تأثرت – وبشدة– اقتصاديا، ومع اضطرارها لإغلاق باب تقديم الأعمال، فكرنا في حل بديل، هو النشر لمن يستحق.. وتطورت الفكرة كثيرًا، إيمانًا من دار ليلى (كيان كورب) بأهمية الحركة الثقافية، وحرصًا منها على استمرارها في دورها، وإيمانًا منها – كما عهدتموها– بالشباب الموهوب..

لـذا فقـد قـررت الـدار إحيـاء مـشروعها "النـشر لمـن يـستحق" لفـترة محـدودة هـذا العـام، وعلـى مراحـل، وبـشكل استثنائي، لعل ذلك يحرك المياه الراكدة.. آملين أن يحقق ذلـك مجموعة نتائجها، على رأسها:

- توفير الفرصة للراغبين في النشر أن ينشروا أعمالهم، وأيضًا عبر دار نشر لها اسمها ولله الحمد، مع كبار الكتاب.

- تحقيق الأمان الاقتصادي للكاتب، حيث يضمن عـودة ما دفعه بعد عام واحد، مع هامش ربح خفيف، إضافة للغرض الأسمى، وهو أن يرى أعماله منشورة.

- تحقيق المصداقية والوضوح بين الناشر والكاتب، عبر شكل وبنود العقد الذي يعتمد على حماية الملكية الفكرية، كما هي عادة عقود دار ليلى.

- توفير عناوين جديدة ذات قيمة للسوق المصري، الأمر الذي يخدم العملية الثقافية.

ندعو المولى عز وجل أن يكلل مجهوداتنا بالنجـاح، وأن ينال مشروعنا رضاكم، وكلنا ثقة بـأن كـثير مـن الأسمـاء الـتي تنشر من خلال هذا المشروع، ستصبح – مثـل سـابقيها– بـإذن الله من اللامعين في مجالات ثقافية عدة.

مقدمة

بدأت في صياغة هذا الكتاب قبيل ثـورة ينـاير ببـضعة شهور، ثم توقفت عن الكتابة إبان إندلاع الثـورة الـتي و بكـل فخر و إعتزاز كنت من أبناءها الذين سلكوا نقطة إنطلاق دربها في الخامس و العشرين من يناير، مروراً بيـوم الجحـيم جمعـة الغضب، نهاية بإسدال الستار علي الأحداث التي وقعـت علـي خشبة مسرح القصر الرئاسـي. بعـد إنتهـاء الثـورة، إسـتأنفت كتاباتي حتي إنتهيت منه في أواخر فبراير 2011.

قد يظن البعض أن إنـدلاع الثـورة كـان لـه تـأثيره علـي القصص التي إستأنفت صياغتها، إلا أن الكتاب في واقع الأمر لا يتناول أياً من أحداث الثورة، بقدر مـا يتنـاول مـشاعر الآلام و المعاناة التي زجت بأرواح هذا الجيل في أتون الإحباط و اليـأس

خلال الأعوام الداكنة المعتمة التي كانت جمرات إشتعال الثورة. هذا الجيل الذي أتحدث عنه هو أكثر أجيال مصر التي تجرعت من ينبوع الإحباطات و الإخفاقات التي سقاها لهم أصحاب المصالح و النفوذ في النظام البائد، فنحن أمام جيل عاني من لهيب البطالة الحارق و أعاصير الفساد و تحكم رجال الأعمال في مصائره كما لم يعاني جيل آخر في تاريخ هذا البلد، فنري جيلاً أصيب بأعراض الإكتئاب بعد عملية التجريف لأحلامهم و آمالاهم التي قام بها النظام ليحرمهم من متعة النظر لمصرهم العريقة كرائدة للمنطقة العربية و حامية للبوابة الشرقية، و إنما للأسف شهد رئيس دولته يتابع إبادة شعب غزة في حرب (غزة 2008) و إغلاق معابر رفح باسم الخوف من حماس تارة، وتارة أخري يشاهد ذبح الأطفال في لبنان في (حرب لبنان 2006) باسم الخوف من المد الشيعي لحزب الله، شهد هذا الجيل مباركة الدولة لضرب أفغانستان من قبل الولايات المتحدة باسم محاربة القاعدة، شهد هذا الجيل غزو

الولايات المتحدة للعراق عن طريق فتح معبر القناة للمدمرات الأمريكية، شهد هذا الجيل الجلد، الصامد، التصديق علي تقسيم أول بلد عربي والتصديق ومباركة إعدام أول رئيس عربي بدم أبرد من صقيع الشمال.

نعم، شهد هذا الجيل التعس الذي ولد في أواخر السبعينيات و مطلع الثمانينات كل هذه الأحداث و عاني أضعاف المذكور آنفاً، و في هذا الكتاب الذي بين يديك تعمدت الزج بكل آلام و مواجع هذا الجيل بين سطوره، ندعو الله تعالي أن لا تتكرر مأساته تارة أخري بين أياً من الأجيال المقبلة التي نتمني لها من أغوار قلوبنا أن تنعم باستنشاق نسيم الحرية و رياح التغيير التي زهقت بعض أرواحنا و أريقت دماء شهداءنا فقط من أجل أن تنعم هذه الأجيال بمصر جديدة.

باهر بدوي

إهداء

إلي شهداء يناير المجيد..

إلي الشهداء الذين إتقوا سهام الدهر بأفئدتهم..

إلي الملائكة التي رفرفت في سماوات المجد بعد ما غسلت دماءهم الطاهرة أرض مصر وحفرت شهادتهم معاولها في قلوبنا ونقت أرواحهم هواء الوطن من القهر والطغيان.. ستلتمع أسماءكم بين النجوم المنيرة كلما شهقنا باعيننا إلي سماء الله الفسيحة.. رحمكم الله.. كم كان عطاؤكم درساً لنا أجمعين في التفاني و التضحية الشاهقة فقط من أجل أن تتنفس الأجيال القادمة رياح الحرية..

لكم أهدي هذا العمل..

باهر بدوي



قرحة في المعدة

لطالما عشق شرفة داره الفسيحة ذات الأمتار السبعة والأرجاء الشاسعة، فمنذ طفولته كان مرأى الشارع والمباني المحيطة من أعلى شرفته تبعث في نفسه إشراقة روحية تتوهج لها بداية يوم جديد من حياته، فقد كان يقطن بالطابق السابع حيث كان المشهد من الشرفة يكشف عن عورات المنطقة وأسرارها، والواقع أن سكان العقار بأكمله قد طالعه الحظ فى هذا الشأن، فبالإضافة إلى شهوق إرتفاعه، لم تكن هناك أى عقارات تحجب

رؤية الناظرين عن التلصص وإختراق العوالم الأخرى الكامنة في شقق العقارات المقابلة. لكم من أسرار رأى من هذه الشرفة، ولكم من فضائح عرف. كم من فتاة تلصص عليها وهى تبدل كسوتها، كم من أزواج يتعاشقون رمقهم في شغف في ليالي الصيف الحارة. كم من أب رآه يكيل بالصفعات لإبنته إلى حد شطر نياط قلبه.

لكنه اليوم لم يتلمس هذا الإحساس الذي عاشه منذ صباه كلما دلف إلى الشرفة. لم تخضع نفسه لإشراقة اليوم الجديد أو الليل الوليد ولا حتى عطر الخريف الذي طالما تنهدت له رئتاه مرحبة بإقتراب الشتاء وتفتحت لها خلاياه في ظمأ.

الواقع إنه منذ أواخر الشهر الماضى حتى اللحظة الراهنة بات إبتغائه من الكون أمراً واحداً: أن ينقضى اليوم بسرعة وبأى ثمن، إن بقاءه متيقظاً لم يعني له سوى المزيد من الألم، إنتصاره الوحيد الذي بات يجنيه من الحياة هو توديع اليوم حين يخبو صباحه. تخلص نهائياً من آماله وأحلامه القديمة في أن يصير فناناً عالمياً مثل "آندي وارهول" أو "بولوك" وحل محله هدفاً واحداً: إنقضاء النهار وحلول الليل ليدفن جسده المرهق المثخن بالألم تحت

ملاءة سريره. لكم كان ساذجاً، خالي وفاض العقل حينما كان يحلم كالأطفال بالمروج والجنات الخضراء والخضرة اليانعة اللامعة. هو الآن قد آلف الحقيقة المرة: الدنيا ليست نزهة إلى الحديقة كما كان يحسب. الكثير من الأهوال قد تحدث للمرء. الكثير من الشجن، الكثير من الخوف.

- "نادر"، جاهز يا "نادر"؟!

سمع صوت أمه المجلجل في رواق الدار. فكر للحظة أن يتظاهر بعدم السمع ولكنه تذكر كم من مآس وتضحيات تجابه هذه الباسلة بسببه. لكم أرهقها وشاققها على مدار حياته منذ طفولته. لكم من ليلة سهرت على سقمه ولكم من أيام من عمرها أضاعتها جواره لإستذكار دروسه.

نهض من مقعده متثاقلاً نظراً للآلام القارسة التى فتكت بساقيه فجأة منذ الأيام المنصرمة.

خرج من الشرفة مترنحاً إلى الرواق حيث وقفت هي.

- أنا جاهز، هيا بنا.

أسقطت في يدها وتطلعت في تهيب إلى ما آلت إليه هيئته

وقد عاد جرح قلبها للتفتق من جديد كما يحدث لها كلما تسنى لها أن تراه متقداً بشمس النهار، حيث حفرت الهالات السوداء معولها تحت عينيه وبرز جسده النحيل المتهالك. عندئذٍ إبتلعت ريقها متصعبة وقالت :

- هيا يا بني.

* * *

تطلع إلى السقف وقد خالجته رعشة خفيفة إثر مسح الطبيب السائل المرطب اللزج على بطنه إستعداداً لتمرير قطب السونار. تملكه ذات الشعور الذى طالما تملكه كلما تمدد على مائدة الفحص. هو مزيج من الشعور بالعجز والضعف. الشعور بأنه ما زال طفلاً وحيداً. الشعور بسيطرة الطبيب المطلقة في هذه الغرفة.

- حسناً، انهض يا "نادر".

إعتدل في جلسته وبدأ في تصفيف ملابسه المشعثة في حين إستبقه الطبيب إلى مكتبه وبدأ في خط بضعة ملاحظات في دفتره. حاولت أمه أن تشرئب بعنقها لتبصر ما يكتب ولكن هيهات لأحد

أن يفلح في فك رموز الطلاسم الغريبة المبهمة التى لا يألفها سواهم والصيادلة.

جلس "نادر" على المقعد البلاستيكي المقابل وطالع وجه والدته المحتار وعندما تقابلت أعينهم عاودها ذات الشعور بالنصل الذي ينخر قلبها كلما طالعت وجه ابنها الشاحب كالخضرة الذابلة.

سأله الطبيب دون أن يرفع حدقتيه عن ما يخط:

-هل بدأت الذهاب إلى الجامعة يا "نادر"؟

-ليس بعد يا د."ثروت" إني مريض وضعيف كما ترى وقد لا أحتمل مشقة الذهاب، قد أصاب بإغماءة!

أومأ الطبيب برأسه متمتماً بصوت خفيض:

-حسناً يا نادر، ولكني أود أن أبشرك بشيء ما..

قالها وإنتزع الورقة من دفتره وجال بصوته الجهوري في صباحات الحجرة متبسماً لمريضه:

-يا "نادر" أنت سليم تماماً، لا علة بك، أنت لست ضعيفاً،

إن ضغط دمك ممتاز، سرعة دقات قلبك فوق الممتاز، حتـى القرحـة المعدية تحسنت كثيراً وبدأت في الإلتئام.

-ولكن ساقاي، ساقاي يا دكتور لا تحملاني، إنها تخـونني و..

-أنت سليم معافى يا "نادر" أنت جازع لأوهامك لا أكثر ولا أقل حتى قرحة معدتك، أحلام يقظتك هي التي أوجدتـها.

تدخلت الأم:

-قلت له هذا مراراً يا دكتور ولكن فكرة المرض المميت باتت تثقب جدار تعقله على نحو شاذ. يـرفض الطعـام والـشراب، يـأبى الخروج من الدار لرؤية شعاع الحياة نحيبـه وبكـاءه يـشطران نيـاط قلبي، أريده أن يعود للدراسة، أريده أن يعود للرسم!

-بل سيعود، سيعود لأنه سليم معافى، فقـط عليـه المداومـة على دواء المعدة وأقراص الفيتامين التي كتبتها له اليوم.

* * *

إمتزج قلبه الغافى بظلام الحجـرة القاحـل وذابـت أحلامـه

وأشجانه فـى روح الليـل وراح يـسترجع أيامـه الماضـية علـى هيئـة ومضات خاطفة كديدنه كلما دلف إلى مضجعه.

منذ طفولته حتى هذه اللحظة من عمـره إنتابـه دائمـاً ذلـك الإحساس الموحش بأن ظلام الغرفة ذات نفسه كيـان حـى يحـدق في جسده الكامن فى جشع بدوره، عينا الظلام الغير مرئية تحدق فيـه بإمعان وإصرار معتصرة مخه كالليمونة لتـستخرج عـصارة مخاوفـه الرابضة فى وجدانه منذ طفولته.

تأكد فـى جـزء مـن أن كـل أطـراف جـسده قـد تم تغطيتهـا بـالملاءة البـاردة، تقلـب ذات الـشمال ورنـا ببـصره خـارج النافـذة المفتوحة نحو النجوم الساهرة حيث انساب قلبه فى لمعانها ونورهـا محاولاً غسيل روحه بطلعتها المريحة.

كان جسده يؤلمه و عظامه يكاد يسمع لها أنين. خلاياه تعلـو زفرات أساها ليهتز لها قلبه فى وجل وبعـد زمـن وجيـز، سـبحت روحه وانسابت أحلامه فى حقل الظلام.

* * *

كان المكان يزفر أنفاس الماضى. كل مـا حولـه يـضيء أركانـاً

مظلمة من خلايا عقله. عطش الذكريات يضمد محيط المكان المألوف الذى أيقن جيداً الآن أنه آنسه منذ سنين، وما عسى أن تكون هذه الردهة الطويلة المحصورة بين هذه الجدران البيضاء ذات الملمس القاسي الخشن سوى أن تكون جدران مدرسته؟ الفصول قابعة على جانبى الردهة ساكنة خاوية من الطلبة.

هنا إنفتح مصراعى الباب ليبرز ذلك المسخ من أغوار الجحيم، هو يبدو له كمسخ ولكنه فى أعماق ذاته يعلم جيداً أنه زميل دراسة قديم اسمه "محمد همام" إعتاد هو التحرش به ومضايقته. ترى كم من ليلة قضاها هذا الصبى باكياً في مخدعه بسببه؟ كم من وسادة بللتها دموع قهره وذله؟ لا يهم، فقد عاد للإنتقام وفي هيئة ذلك المسخ الذى تستعر براكين الأرضين في عينيه.

لم يجد بداً من الركض. الركض دون النظر وراءاً. راح يركض كالملسوع بين الفصول مشرعاً ذلك الباب وذاك، ولكن هيهات، ها هو ذا المسخ يقف منتصباً داخل كل قاعة ووجهه يزداد قماءة وبشاعة. لم يعد أمامه سوى عدو الدرجات. الردهة المظلمة تستحثه على الركض. الدرجات ترجوه أن يقفز فلا وقت للهبوط.

لقد نجح في الهروب من المبنى. ها هو ذا فى الفناء الشاسع، ما عاد أمامه سوى بلوغ البوابة فالشارع فالمنزل فالتدثر تحت سقف الأمان ولكن هيهات، فـ– "محمد همام" الذى أضحى ينفث ناراً تلظى من فمه كالتنين لا يزال يطارده وقد إستحال غضبه كفيضان النيل. إنه يقترب، حرارة لهيبه باتت تحرق ظهره، إنه يقترب.. يقترب.. الهرب.. الفرار.. المنزل.. الـ..

* * *

-"نادر"، "نادر"، بسم الله الرحمن الرحيم.. يا بنى أنت ترى كابوساً!

آه وآه من لحظة الإستيقاظ صباحاً، شمس الصباح تشق عينيه كرياح الطوز القاسية. الشلل يعم جسده فلا حياة له مهما ناجاه عقله. مسام جلده تلفظ المعاناة والإجهاد، ضياء النهار بات كالمسامير يدق أخشاب نعشه. أنين عظامه يرتفع ويرتفع.. وبإعجاز سماوى، يرفع الستار عن عينيه وينفطر ثغره عن كلمات مبهمة.

* * *

بصعوبة يفطن إلى أن هذه المرأة الملتاعة التى ترمقه في ثبات هى أمه وبدأت أذنه بالعمل على ترجمة كلماتها المشتبكة بأطراف

الكابوس. راحت تردد هي عبارات على سبيل: بسم الله الرحمن الرحيم.. يا بني قد رأيت كابوساً أتريد كوباً من الماء؟

أمعن النظر في الغرفة القابعة حوله بعد أن تلفحت بشعاع النهار.. لكم تبدو مختلفة عن الغرفة الكئيبة التي يبيت فيها كل ليلة.

قبل أمه وأحاطها بذراعيه ثم عاونته هي على النهوض حيث إن جسده كان مثخناً بالألم والإرهاق وبدأ يستعد للذهاب للجامعة.

* * *

كانت الأمور على ما يرام طالما كان ماشياً في شارعه الهادئ الخالي في هذه الساعة من النهار ولكن بمجرد أن وطأت أقدامه الشارع الرئيسي حتى تصلب جسده وإحتبست أنفاسه من هول المرأى.. أناساً، أناساً في كل مكان وفي كل صوب. الناس الطيبون الذين إستيقظوا من قبيل خروج الشمس من مرقدها باحثين عن مأكلهم وقوتهم.. الناس المساكين الراضين دائماً بأقل الحظوظ وفراً. الناس الذين راحوا يتنادون ضاحكين باسمين محاولين تجاهل صراعهم اليومي مع نواميس الحياة، محاولين تجاهل جراحهم

الملوثة بالحزن والمذلة.. الناس المكبوتة اليائسة في كل شبر من الشارع سالكين دروبهم لأعمالهم وإلتقاط فتات رزقهم. الشباب الذي شاخت ملامحه عشرون عاماً قبيل اوانها. لفترة ما كان قد نسيَ وجود بشر آخر غيره لديه ما يفوق أضعاف همومه، لفترة ما بات يظن أن الكرة الأرضية بأكملها تنحسر داخل جدران داره والمشكلة الوحيدة فى هذا الكون باتت قرحة معدته. لقد أدرك الآن الحقيقة التي أسدل عنها ستار مسرح حياته الخاصة. خلف هذا الساتر الحديدي هنالك أناساً آخرون يعيشون معه على ذات السطح الأرضي الذى يحيا عليه.

لكم كان أنانياً معصوب العينين كالفرس لا يرى سوى طريقه الخاص.

بدأ يخطو متعمقاً نحو الشارع الذي يضج بحركة السيارات المارقة والحافلات المثقلة بالبشر المعلب داخلها، شمس الخريف الطالعة.. الناس الغرباء يتصايحون، السيارات تطلق أبواقها في إصرار.. الزحام.. الناس.. الحافلات.. الشمس.. تلاميذ الصبيحة.. الأبواق ترج عقله.. عوادم السيارات تدمي رئتاه.. الناس...

الناس...

أطبق كفيه على أذنيه وراح يركض، يـركض بعيـداً مبتغيـاً الإبتعاد عن المشهد الذى لم يؤانسه لمدة شهرين كاملين. شهرين فـى سجنه المنزلي الإختياري.

ودون كلمة ألقى بنفسه داخل أول سيارة أجرة وترك دموعه تنساب وتحجرت كلماته فى حلقه صارخاً بالسائق المأخوذ:

-الدقي، الدقي بأقصى سرعة!

وإنطلقت السيارة العتيقة تشق دربها بينما سـائقها يبـسمل ويحوقل.

* * *

إشتعل حطب جهنم في معدته وإرتفعت عصارة الجحـيم إلى حلقومه. وضع منديله على فمه وبصق مـرارة محتـواه المالحـة. كـان دماً.. دماً قانياً لزجاً من أعماق معدته قرر الخـروج إلى الـسطح فقـط ليبلغه أن القرحة تلقي تحية الصباح.

* * *

توقفت السيارة بجوار بوابة الجامعة، وبساقين من الهلام ترجل خارجاً ثم إنه أخرج ورقة مالية من فئة المئة جنيه وألقاها للسائق على المقعد المجاور الذي ما أن ألتقطها راح يفتش في خزانة السيارة باحثاً عن مبلغاً مناسباً يرده له ولكن ما حدث كان أجمل من أن يصدق فقد كان زبونه قد أدار ظهره وبدأ بالفعل يترجل ببطء نحو باب الجامعة غير منتظراً باقي مستحقه، فما كان من السائق إلا أن قبل الورقة المالية وألصقها بجبهته لجزء من الثانية على سبيل "الحمد لله" ثم ابتعد عن زبونه غريب الأطوار.

وقف هو أمام مبنى جامعته المطل بين الأشجار العتيقة وراح يتشمم رائحة السنين الثلاثة الماضية التي يحملها كل حجر شارك في بناء المبنى، كل حجر وكل بلاطة وكل ورقة خضراء تحمل في طياتها تلاً من الذكريات. لم يكن راغباً البتة في الإتجاه لساحة الفناء، فهو غير مستعد لملاقاة زملائه الذين كانوا قد وصل إلى مسامعهم بعض الرذاذ عن مرضه وأيقنوا إلى أنه ليس على ما يرام. حاولوا زيارته مراراً ولكنه تملص من لقاءهم بمائة حجة فما كان منهم إلا أن عادوا جميعاً ممسكين بمقودات حياتهم وإنطلق كل منهم مستأنفاً رحلته الدنيوية.

كلا هو لا يريد أن يلقاهم، بل إنه لا يريد ملاقاة أي أحد، لا أحد لديه خلفية عما آلت إليه الأمور. سيصعق الجميع لدى مرآه. إنطلق كالسهم إلى داخل المبنى وراح يثب الدرجات كالرهوان متجاهلاً صرخات وتوسلات ساقيه المنهكتين المكدودتين.

- هذا"نادر"!

شعر بالقرحة تهتاج ثانية لدى سماعه الجملة إلا إنه تجاهل قائلها واستأنف عملية فراره، إلا أن الصوت عاد يصفعه بإصرار مستفز:

- لقد عاد "نادر"!

- يا "نادر" إنتظر!

وصل إلى إحدى الطوابق دون إكتراث أي طابق هو، إندفع كالمسعور نحو أول باب رآه وأدار مقبضه بعنف لا مبرر له، ولكن ما أن إنزاح الساتر الخشبي عن ناظره حتى تلقفت عيناه عشرات العيون تحدجه بدورها بتساؤل.. ثمة إمرأة تقف في منتصف القاعة قبالة لوحة الشرح ممسكة بقلم بين أصابعها، كانت مفغورة الفم جراء بتر إسترسالها في الشرح وبعد بضعة ثوان مرت كعقد من

الزمن، أردفت :

- نعم، هل من خدمة؟

خفق قلبه وتمتمت شفتاه بأشلاء كلمات ما، تحولت في النهاية إلى تراب تذروه الرياح فما كان منه إلا أن أغلق الباب ثانية وعلى صوت الضحكات من الداخل مضى يستقصي باقي القاعات المغلقة وتكررت الكرة حتى بلغ ملاذه في النهاية.. قاعة خاوية كعقل طفل متقاربة الأطراف..نعم، هذا جل ما يبتغيه الآن.

دلف إلى الداخل وإرتمى على أول مقعد في مواجهته.. إكتنف المقعد ووأد رأسه بين ذراعيه الناحلتين وراح يتدثر بخواء القاعة من حوله. وبهدوء بدأ محرك جهازه العصبي يسفر عن أعطابه فبدأ ينشج بالبكاء، ولكنه بدا بكاءاً خجولاً متوارياً داخل أحشاءه إكتفى أن يفصح عن وجوده ببعض النشيج المصحوب بإختلاجات سريعة خاطفة وعندما آلفت روحه المحيط، قررت كأس الألم أن تسكب محتواها من أعباء الشهرين الماضيين، فإرتج جسده كزلزال هندى معلناً عن بكاء صريح وجريء.

إجتثه من آلامه ذلك الشعور الذى يستشعره مرهفي الحس

عند التعرض للتلصص فرفع رأسه ببطء تجاه باب القاعـة ليبـصر شـبح إمرأة واقفة تسد المدخل ومن خلفها الشمس تضخ أضواء شـعاها الفـضى من حول جسد الواقف قبالتها مما ساعد على تعذر الرؤية نوعـاً ولكـن حينما آنست عيناه المشهد، أيقن أنها ذات المرأة الـتي كانـت في القاعـة التي أغار عليها منذ بضع دقائق.

قالت له:

- هل يوجد محاضرة هنا؟

- لا..!

قالها وأشاح بوجهـه بعيـداً كـي لا تتـبين شـلالات الـدموع المسترسلة على سطح خديه، إلا أنها عاودت السؤال:

- لماذا تبكي يا بني؟

دفن نظراته فى خشب الأرضية العتيق وللحظة تـساءل: ألا يفكرون أبداً في صيانة هذه الأرضية الهرمة؟!! إلا أنـها إنتزعته من أفكاره معاودة السؤال:

– يا بني هل يمكننى مساعدتك؟

تصاعد الألم في داخله حتى بلغ حلقومه وبدأ لجـام أعـصابه

تفلت تعقلها المهترئ من حول روحه، لقد إستنزف آخر قطرات التعقل في اللحظات الماضية، لذا وجد نفسه ينتفض كالورقة وهمس بصوت خفيض محاولاً فرض السيطرة على نفسه:

- سوف..سوف أموت.

- ماذا..سوف ماذا؟!

- سوف أموت!

راحت تتفحصه من أطراف شعره حتى أخمص قدميه محاولة أن تتبين شيئاً هي نفسها لا تعرف كنهه، لعلها المخدرات؟ إن المخدرات أطاحت بهذا الجيل البائس من حافة الدنيا ولكن الفتى لا يبدو من أهل ذلك، هو فقط يبدو مرهق ومتعب إثر ضغط عصبي، عاودت تسأله:

- تموت؟! ممَ ستموت يا بني؟

نظر إليها بعينين ملتهبتين كجرح متقرح وقال:

- سأموت لأني مريض.

- مريض؟! مما تعاني يا بني؟

- قرحة في المعدة.

- منذ متى وقرحة المعدة قادرة على إفنائك يا بني؟

نظر للحظات إلى خشب الأرضية المحطم ثم أردف بصوت متهدج:

– ثمة أمراض أخرى..

– أى أمراض؟

– لا أعرف، ولكنى واثق من وجودها. الأطباء ينكرون وجودها كي لا يعتريني الفزع ولكني أستشعرها وموقن من وجودها.

وأمام حدقتيها الشاخصتين بدأ في النهوض من مجلسه إلى درجة تفكيرها في أن تولي الأدبار إلا أن صوته فجأة إتخذ نبرة عدوانية وسلط كشافات عينيه في مقلتيها مردفاً:

-أتظنينني أهرف؟!! أتحسبيني أهذي..؟! إن ساقاى صارتا كأعواد الثقاب، بالكاد تحمل جزعي، وضغط دمي، لا ينفك ينخفض يومياً.. هل تريدين أن تعرفي كم هو الآن؟!! إنه ستون على خمسين! ودقات قلبي، إني أسمعها حيث اقف لا حاجة إلى سماعة طبيب لسماعها. إنها مضطربة تدق كطبول القبائل! هل تعرفين ما

هو شعورك بإنتظارك الموت؟؟!!

- يا بنى إن كان كلامك صحيحاً فكيف وصلت إلى الجامعة اليوم؟ صدقني شخصاً يعاني من أعراضك لما وصل إلى جهته اليوم.

قاطعها مستطرداً:

- أنت لا تعرفين شيئاً.. إن كبدي..

- يا بني لو كان بجسدك كل هذه الأعطاب لما سمح لك طبيبك بممارسة نواميس حياتك الطبيعية، لما سمحت لك أمك الخروج من الدار.

هنا إرتعد بدنها، إذ إرتفعت حدقتا عينيه حتى اشرفت على ملامسة السقف وإنتفض جسده إنتفاضة سريعة متتابعة وسقط على كرسيه شبه مغشياً وراحت حدقتاه تدور كالكواكب في مجرات عينيه ثم راح يردد بصوت متحشرج مشروخ:

-أنفاسي...أنفاسي...إن كل هذا المجهود...سيغمى علي...أو لعلها... لعلها المنية ستوافيني!!!

وأسدل المشهد حرملته السوداء قبالة عينيه.

* * *

بدأ يستعيد وعيه إثر أصوات أناساً يهمهمون من حوله ورؤى مبهمة تتبلور أمام عينيه مما شجعه على إعادة إسدالهما.

إنه جحيم الإستيقاظ.. أمه توقظه من سباته لتغرز الشمس شعاعها مجدداً في صدره ويستحيل كالمصفاة.

هنا فقط هاتفه خاطر بأنه فعلاً قد إستيقظ هذا الصباح ومر بهذا الجحيم صباحاً وذهب إلى الجامعة.. إذن ما هذا؟

حاول جاهداً تحرير واقعه من شباك هذيانه وأشلاء أحلامه، حاول مراراً فتح عينيه وإبصار الأطياف المحيطة به إلا أن جفنيه كانا أثقل من أطنان من الرمال فقرر أن يحاول النهوض وفي النهاية حين نجح في رفع نصفه العلوي شعر أن الأمور تتحسن وأن نسيج الرؤية بدأ في حياكة ذاته تلقائياً.

أخيراً تفككت الرموز وبدأت الرؤية تفصح عن ذويها. كانت المرأة ذاتها واقفة ترمقه بخليط من الشفقة والفضول وبدأت تهمهم بعبارات من طراز: ها هو ذا بطلنا بدأ يعود، ألم أقل لكم إن الأمر بسيط، بينما كانت أمه بجوارها واضعة كفيها على ثغرها وقد ترقرت العبرات في مآقيها وعلى مقربة منها، كان إثنان من أقرانه

يتابعان المشهد في إستحياء، كانا هما أصحاب الفضل فـى إستدعاء الأم على عجل لترى ما آل إليه إبنها غريب الأطـوار إلا أن حواسـه المرهفة إستشعرت شخصاً خامساً فـى المـشهد وتأكـد مـن هـذا حـين سمع ذلك الصوت الذكوري الراضي عن نفسه يتمتم من فوق رأسه:

-لا بأس، لا بأس يا بني، يمكنك النهوض والتحديق في من حولك كما تشاء.

فتح فمه لجزء من الثانية، ثم فجأة كمن تـذكر شـيئاً، قـال بلسان أسقمه الجفاف:

– ملح، أي شيء مالح، إن ضغطي..

– ضغطك ممتاز يا بني، لا داعي لشيء مالح.

لكم كانت كلمة "بني" تستفزه منذ صباه، وخطر له أن يـرد بعبارة على غرار: لست إبنك يا رجل أو شيء من هـذا القبيـل، إلا أنه عـدل عـن رأيـه عنـدما أدار جملـة الرجـل فـى رأسـه: ضـغطك ممتاز؟!.. كيف..؟؟!!

– هل أنت....

– نعم يا بنى، أنا طبيب الجامعة!

ثم وجه الطبيب كلامه للأم:

- سيدتي، يمكنك الذهاب مع خالص تأكيدي إنه بمتانة شجرة بلوط، فقط هو مرهق ذهنياً لا أكثر.

لم يفهم كلاهما سر التشبيه بشجرة البلوط؟! كل ما أدركاه إنهما بوسعهما الإنصراف.

- يا "نادر"

هتف الطبيب من وراء ظهره فاستدار متسائلاً عن اى مصطلح سيستخدمه هذا المتحذلق هذه المرة، لم يخب ظنه كثيراً عندما قال:

- أتدري أي مرض تعاني منه حقيقة؟

هز رأسه بأنه لا يعلم، فأردف الطبيب:

- أنت لم تتعرف على مطلبك من الحياة بعد، فتش جيداً فى أركان عقلك عما تريده من الحياة وستزول أمراضك وتطيب قرحة معدتك، ولكن بالنسبة لصحتك، أنت سليم تماما.

نظر له نظرة خاوية حين إستطرد الرجل ثانية:

- إبحث يا بني عن ذاتك، إبحث عن ما تريده منك الحياة

وما تريده أنت منها.

صاحت أمه:

- إنه فنان، يرسم أبدع اللوح ويتذوق أرقاها، ولكنه توقف تماماً عن الرسم منذ أصابته هذه الحالة.

- بل سيعود للرسم، هذه موهبة لم يعطها الله لك هباءاً. صب جم ما تملك من مشاعر فيها فلا تحرم الناس منها ولا تحرم نفسك منها!

* * *

ترك رأسه تغوص فى الوسادة وأرخى جسده على سطح سريره وإن شعر بأن تصلباً ما بدأ يزحف على أوصاله ولكنه كان قرر أن يحاول الإسترخاء قدر إستطاعته، جذبت أمه الدثار وحرصت على أن تغطي كل شبر فى جسده كما إعتاد هو. سألته:

- هل أطفئ نور الغرفة أم أتركه؟

- كلا أطفئيه، لا أريد أية إضاءة.

وعندما تهيأت للإنصراف ناداها:

- أمي...

- نعم

- .....؟!

- إعتنى بنفسك لأني لا أظن إني سأستيقظ لأرى نور النهار هذه المرة.

- هذا مالا تنفك عن قوله.

- هذه المرة أنا واثق!

نظرا برهة لبعضهما دون النطق بحرف قبل أن تنصرف قائلة:

- تصبح على خير يا "نادر".

ثم إنها أغلقت الباب وإنصرفت.

* * *

ماج عقله في سماء الغرفة وتاهت وسط سحبها. بدأت رؤياه تتشح بالظلام المحيط بحواسه الغافية بالرغم من زحف ذات الشعور بالتصلب كالأفعى على جسده المسجى معلناً السيطرة على كيانه الرخو كقلب طفل. إن كابوساً قادماً، نعم.. هو يعرف ذلك.. بل على يقين منه، لقد أضحى محنكاً في التنبوء بالكابوس قبل

وقوعه ولكنه في النهاية أذعن لأوامر سلطان الليل.

* * *

الجمع غاضب..

هذا الجمع المحتدم كله غاضب من أفعاله والكل يطالب بالقصاص.

العقاب والعقاب فقط.

وهنا سقطت عيناه عليه، ظهر فجأة وسط الجمع، تجلى كفلق الصباح وسط ظلمة المشاعر الغاضبة.

إنه النبي.. النبي محمد بن عبدالله، صلي الله عليه و سلم، لقد جاء ليكف سيف الظلم عن عنقه.

إنه الدرع وسط العاصفة، ريش يكسو جناحي طائر محلق في سماء الله مبتغياً الخلاص.

صاح مناجياً:

-يا نبي الله، إن حكمك عليَّ لهوَ قطرات من آمال الفردوس، كفيلة بإثلاج سعير القوم الغاضب، فهلا عملت على أن توافيني

معك إلى يابسة الأمان؟؟

لم يـرد النبـى، وإنمـا إكتفـى بـأن حدجـه بنظـرة غاضـبة إهتاجت لها أعاصير الذنب وأثارت زوابع الإتهام فى روحه.

-سيدى النبى، أرجوك، إنى فى حاجة لما تكن مـن رحمـة، إن هؤلاء القوم..

لم يجبه النبي، وإنما إستدار جامعاً رحاله من أى أمـل فـى الخلاص ولكنه عاود التوسل:

– يا حضرة الرسول، لا تمشي مغاضباً، أنا لم أرتكب..

لم يرد النبي وإنما ضم كلتا يديه ورفعهمـا إلى الـسماء وبـدأ يدعو ربه مخافتاً وعندما فرغ، بدأ في التسبيح بيده المباركة.

هنا الفى نفسه وحيداً مجابهاً غلهم.

كان مكبلاً معلقاً في أعالي السماء.. الجمع يقترب.. الأسلحة البيضاء تـستمد وهيجهـا مـن غـضبهم.. عقبـان الـشر ترفـرف فـى أعينهم. إقترب أقبحهم خلقة وأنفاسه الساخنة تلفح وجهه وفح من بين أسنانه:

– أيها الشيطان، فليكن مثواك جهنم، لقد قتلت إبني.

- إبنك؟ من هو إبنك؟

- محمد همام..!!

حاول الصراخ ولكن هيهات، في الكابوس تبيت عاجزاً كقملة، عاجزاً ووحيداً.

* * *

هذه المرة لم يصرخ عند استيقاظه، وإنما إنتفض في مخدعه كزلزلة اليوم العظيم.

إن هذا الذى رآه لهو من أشنع ما رأى فى سباته. راح يسترجع..

أيها الشيطان..

لقد قتلت إبني..

النبي "محمد"

النبي "محمد" تركني مغاضباً، النبي لم يرد إنقاذي..!!

إعتملت هذه الأفكار كبكرة عرض سينمائي مسترجعاً ما

رآه، فلتزأر العاصفة، أما الآن فإنه مكدود، مكدود ومتعب، هناك من هوى بالمطرقة على ساقيه.

فلينام الآن.. فلينام ويفكر فى الصباح.

* * *

فى الصباح كانت حالته مستعصية بحق.

كان ينتفض كالورقة جالساً على الأريكة التى طالما أحبها حين كانت حياته خضراء ويانعة. إصطكت أسنانه ببعضها حتى شارفت على التفتت. العرق يصعق عموده الفقري بلسعانه القارس.

إن هذا الذي رآه له مغزى واحد لا غير!

كل ما يحدث له ليس سوى عقاب، عقاب من الجبار المتكبر.

إن الرسول الكريم لا يحبه

وكذلك ربه.

هنا نهض ودخل شرفته محاولاً استرداد أشلاء روحه المفتتة. فليفعم عينيه بشمس الخريف عشيقته منذ الطفولة ولكن

هيهات، الألم لا يزال يتصاعد في الداخل، حمم الخوف تزداد غلياناً. هنا أدبر إلى الداخل ثانية وبيد مرتعشة، أعاد غلق الشرفة. إن معدته تحترق. النيران تشتعل في مركزها.

هرع إلى الحمام بسرعة وبلهفة المتعطش أدار الصنبور الخاص بالحوض وملأ راحتيه بالمياه الباردة القارسة ولطمها على وجهه وجعل يكرر الأمر ثلاث مرات متتالية. صرخت خلايا جلده إثر البرودة ولكنه لم يلتفت لتوسلاتها. الآن تأتي الذراعين فالمسح على الرأس فالقدمين.

نظر إلى وجهه المبتل في المرآة، قطرات الماء تلتمع على وجهه كحبيبات كريستالية صغيرة عالقة ولكن هذا لم يمنعه من تدوين ملحوظة ما في عقله: إن وجهه بات داكناً مسموماً.

ليست هذه بأعراض مرضية.

إنه غضب الله.

الله ورسوله الذي ولى مغاضباً عنه تاركاً إياه للقوم!

خرج من دورة المياه متجهاً لباب الشقة دون أن ينبس ببنت شفة لوالدته الغافية.

* * *

لطالما إستشعر الوجود الملائكي في المساجد، يكاد يتنشق عطرهم الطاهر كقلب وليد، في صباحاته وفي أركانه. مسام جلده تتفتح لتروى بذورها صفاء ونقاء الضوء الأبيض الذى غسل الوجود. إن الله هنا، في مكان ما هنا، أرواح الصحابة هنا، هو يشعر بهم. تحت هذه القبة الكل يصلى، الكل يتلوا الكتاب الكريم من لا يفعل هذا ولا ذاك فهو في سبات عميق.

خبا لهيب معدته نوعاً حين دلف إلى المصلى الرئيسي. ملأ صدره إطمئناناً وهدوءاً. رفع يديه نحو القبلة وهمس :

-يا الله... يا رب العالمين... لا تتركني أغرق، إني بحاجة إليك.. بحاجة إليك.

وأدركه البكاء وترك دموعه تنساب.

- ..الله أكبر.

قالها رافعاً كلتا كفيه إلى جانب أذنيه ثم ما لبث أن وضعهما فوق صدره وبدأ فى تلاوة الفاتحة مخافتاً.

وبالرغم من تركيز بصره في موقع السجود إلا إنه تمكن بعينه الخفية أن يستشعر أحدهم يرمقه. فى ثبات من بين

الجالسين حاول تجاهله وظل يدعو كثيراً، دعا كثيراً وتهانف إلى درجة إبتلال الأرض بمخاطه ودموعه إثر سجوده، بدأ في الإرتجاف رغماً عنه. كان خائفاً بحق، وبالرغم من هذا لم ينعم بالخشوع كاملاً من رقابة هذا الفضولي له.

أخيراً فرغ من صلاته فأغمض عينيه ورفع كفيه فى تضرع:

- ربي يا ذا الجلال والإكرام، ربي يا ذا الجلال والإكرام، ربي يا ذا الجلال والإكرام، لا تعاقبني وإرفع بلائك عني، سبحانك ليس لي سواك وليس لى سوى نبيك خير شفيع، فارفع مقتك وغضبك عني، بحق كل إسم جليل سميت به نفسك أو علمته لأحد من خلقك أن ترفع مقتك وغضبك عني. آمين يا رب آمين.

مسح بكفيه على وجهه وبدأ جسده يكِن بالفعل.

سحب مصحفاً وبدأ في التلاوة.

الآن تلاقت عيناه بعينى المتطفل الفضولي.

كان رجلاً في العقد الرابع متشحاً بجلباب أبيض قصير كاشفاً مساحة لا بأس بها من ساقيه، له لحية سوداء مشعثة. كان يرمقه بثبات مزعج ومنفر. أعاد تسليط عينيه على ما يقرأه ولكن

النظرات كانت ثابتة ومزعجة وحين بلغ السيل الزبى، رفع عينيه إليه متحدياً إلا أن الرجل قابله بابتسامة معسولة وعريضة كبحر "إيجه"، فهز رأسه بخليط من الاستنكار وعدم الفهم على غرار: هل من خدمة أسديها لك؟.

وليته ما ارتكب هذا الجرم، ليته تجاهله كلياً، فكما لو كان هذا رهن الإشارة، إذا بالرجل الملتحي يزحف نحوه كالتمساح راسماً ذات الإبتسامة اللزجة على وجهه، وإتخذ مجلساً على مقربة منه حتى أفحم أنفه بعطر ثقيل ما، سأله:

– إسم الأخ الكريم؟

– نادر.

– عاشت الأسماء يا أخ نادر، أخوك في الإسلام "كرم".

– أهلاً وسهلاً، أتبغي شيئاً يا أخي في الإسلام "كرم"؟

– أتمانع لو سألتك عن سبب معاناتك؟

– معاناتي..؟!

– لا تنكر يا أخي، إن قسمات وجهك متجعدة كالعلكة الممضوغة، ناهيك عن وجهك المخضب بالدموع. إنك تعاني يا أخ

- لم يعتاد في حياته الردود الفظة، فاكتفى بالرد:

- مشاكل شخصية!

- مع زميلة، صح؟

- لا، بتاتاً.

إرتسمت خيبة الأملِ على وجه الرجل، فقرر أن يعاود الكرة، فعاود السؤال:

- إذن؟

هنا وجد نفسه محاصراً بين حوائط الرجل الضاغطة، فلم يجد بداً من أن يحكى له القصة بداية من إصابته بالقرحة المعدية نهاية بالكابوس الأخير، وعندما تطرق لهذا الجزء، تبدلت حفريات وجه "كرم" من الإبتسام المعسول إلى الوجوم فالإشمئزاز. دمدم بصوت خفيض:

- أستغفر الله، أستغفر الله!

وفجأة ودون سابق إنذار، رفع الرجل يديه للسماء مردداً جهراً:

- يا إلهي الذى فى السموات، يا رحمن يا رحيم، اللـهم لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا، اللهم إنك عفو كريم تحب العفو فاعفو عنا، اللهم إنجدنا من طغيان أنفسنا وخراب أرواحنا، آمين.

مسح "كرم" على وجهه من ثم إلى لحيته متمتماً بكلمات ما قبل أن يلتفت للفتى المندهش مردفاً:

- لن أستر عنك الواقع يا فتى، أنت فى مأزق، لقد أغضبت الرحمن!

إنفرجت شفتي (نادر) إستعداداً لردع كلمات الرجل إلا إن الأخير إستوقفه بإشارة من يده مستأنفاً:

- هذا الذى رأيته يا أخي هو رؤيا من عند الله عز وجل وليس بحلم أو كابوس، لعلك على دراية بالفارق.

أومأ برأسه بأن نعم، قال "كرم".

- من الجلي إنك شققت عصا طاعة الله يا أخي، فما كان من الله إلا أن أنزل عليك هذا البلاء.

- ولم لا يكون إبتلاءاً وليس ببلاءاً؟؟!!

إعتدل "كرم" فى جلسته كما لو كـان سـيعلن مفاجـأة ومـال عليه هامساً:

- وماذا عن غضبة الحبيب المصطفى؟ ماذا عن النظرة الغضبة التى حدجك بها؟

- أنا مريض، أنا مريض هذا كل شيء!

- مريض؟ مريض بأى داء؟ أنت تمشي علـى كلتـا قـدميك، مشدود العود والأزر؟

بالرغم من هذا لم يتمكن من السيطرة على إختلاجات وجهه التى خانته شر خيانة أمام أعين الرجل الذي قرأهـا إلى درجـة إنـه كاد يخطها على هيئة حروف وكلمات على صفحة ورقية. قال له:

- إختصر الشر يا أخي، إن فيض الله من الكـرم مترامـي إلى أبعـد الآفـاق ولكنـه لا يـزال وسـيظل العزيـز الجبـار المتكـبر ذو الإنتقام.

* * *

فوق مضجعه جلس القرفصاء وأمام عينيـه، لا تـزال صـورة الرجل جلية. بدأت مسام عقله في إمتصاص الأحداث الأخـيرة. لم لا

يكـون الرجـل محقـاً؟ لمـاذا هـو شـديد التـيقن مـن عـدم إغـضابه لله ورسوله؟ أتراها المكابرة والغرور، إن الغرور لهو مفتاح الهلاك لدى الإنسان على مر العصور فمن قبل إدراك الإنـساني للـزمن والوقـت، كان الغرور هو ما أخرج (بعلزبول) من الحدائق الـسماوية، الطغـاة هلكوا على مدار التاريخ بسبب تيقنهم المبالغ في النـصر. فلمـاذا هـو على هذا اليقين عن رضا الله التام عنه؟؟!! إن جبابرة الأرض هلكوا أجميعن بسبب خيلائهم الذي كان المفتاح لباب الكفر والشرك بالله.

إن عقلــه مرهــق، مرهــق ومتعــب. يجــب أن يترفــق فــى إستعماله قليلاً. دلف تحت دثاره وكسا جسده كلياً مـن تـاج رأسـه حتى أطراف قدميه وفي جنح الظلام، أغمض عينـه.

* * *

الوجود موحش ومقفر، الرمـال تزفـر أنفاسـاً ملتهبـة حارقـة تلفح وجهه وتحرق عينيه. حرارة أحشاؤه آخذة فى التـصاعد والـصهد يتسلل إلى منخريه من ثم إلى جوفه ليحيلها إلى هاوية جهنم.

كان فى فلاة قاحطة مجردة من كل دابة على سطح البسيطة. كان متمدداً على فرشة الرمال الجهنمية وكان من الجلـى إنـه مقيـد

إلى الأرض، ولكن لماذا؟ جاءه الجواب قبل أن يرتد له طرفه، ها هو ذا تمساح كريه الخلقة يزحف نحوه في جشع وطمع، والمفاجأة هنا إنه ليس وحيداً، هناك تمساح ثان وثالث، بل وخامس، إنه قطيع كامل من التماسيح وبعض الزواحف الأخرى التي لم يتعرف كنهها إقترب منه أحدهم وسأله:

-هل ستأتي؟

– آتي؟ آتي إلى أين؟ من أنت؟

– أولا تعرفني وأنا مهراق دمك؟ أنا "شارون" مبعوث الجحيم وصاحب ثغرة العبور.

– حسبتك لك وجه خنزير.

– بلى، ولكن...ولكن...

ترقرقت الدموع في عيني ربيب جهنم ورفع رأسه نحو السماء مردفاً بأسى:

-الحياة...ما أرهقها...الحياة.

* * *

نهض معتدلاً من غفوته في وضع نصف راقد وتمتم:

-بسم الله الرحمن الرحيم، ألم ينتهي هذا الخبل؟!

تنفس الصعداء وأدار عينيه بين محتويات الغرفة عسى أن يجد مخرجاً من شقائه بينما تساءل هو: من رآه مؤخراً يزحف كالزواحف؟

* * *

إستيقظ متأخراً الصبيحة التالية وحاول جاهداً جمع حطام الكابوس الذي كبل منامه البارحة ولكن دون جدوى.

عبر قاعة الجلوس ببطء ماراً بأمه المشغولة كدأبها بإصلاح شيء ما بالتلفاز. مر بها مرور الأشباح دون تبادل أي كلمة ودون أن ترفع عينيها له، سألته:

– ألم تذهب إلى الجامعة اليوم أيضاً؟

اكتفى بطقطقة من لسانه بأن لا ودلف إلى الشرفة. أطلق زفرة إرتياح بمجرد أن ابصر شمس الخريف الخافتة الخجول تزين

الوجود فى إستحياء.

نظر إلى عدة رسمه ملياً. اللوحة الجاهزة الرابضة على مساندها الخشبية وأنابيب الألوان مفتوحة الثغر متقيأة محتواها من ألوان. كان الجفاف والتراب قد أعلنا سيادتهما على جل أدواته.

هنا بدأ في إسترجاع تفاصيل الكابوس إلا إنه في اللحظة ذاتها وبدون سابق إنذار أطلقت معدته عصارتها المعدية الحمضية الحارقة وإشتعلت نيران سقر فى أعماقه، كانت هذه هي المرة الأولى التى تهاجمه فيها نوبة القرحة بهذه الفظاظة، جثا على ركبتيه ونادى أمه:

– أمي، معدتي.. الألم.. شديد هذه المرة !

– بني، ماذا بك؟ بسم الله الرحمن الرحيم، ماذا أفعل؟

– سأموت، سأموت!

هرعت إلى المطبخ ثم عادت ممسكة بعلبة اللبن الكرتونية وقربتها من فمه

– كلا، إن ذلك لن يجدي، إنه الله، غضبة الله علي.

تمتمت مندهشة:

- غضبة الله؟ ما هذا الذي تهذي به؟

- صدقيني أنا على دراية بما أقول.

وبخطوات مهزوزة دفع نفسه دفعاً إلى الحمام حيث تتبعته هي إلى الداخل وشهدته بأعين ذاهلة يدير الصنوبر ويلطم الماء على وجهه لطماً على وجهه ثم على باقي أجزاء جسده، سألته بصوت راجف:

- ماذا تفعل؟! بالله عليك، ماذا تفعل؟!!

دون أن يجفف قطرات الماء المتساقطة من أطرافه، أزاحها جانباً برفق هامساً بكلمات متقطعة:

- المسجد، المسجد.. يجب الذهاب للمسجد!!

- أى مسجد؟!! نادر أنت تفزعني بكلماتك هذه..؟!

لم يجبها وإنما فتح الباب، زائغ العينين، منكوش الشعر، مبتل الكسوة، قاطعاً الردهة إلى المصعد. كفه لا تزال تضغط معدته رغماً عنه.

* * *

المسجد مرة ثانية

عطر الملائكة، النور السماوي يفتح خياشيم قلبه من جديد ويصفيه من عصارة القذارة الدنيوية من أعماقه، الناس، الناس الطيبون يتدبرون القرآن.. الثياب البيضاء كأجنحةِ الحمام، روحه ترفرف في عليين.

* * *

انهمك في صلاته

صلى بحرارة وكأن سوط السلطان في إنتظاره إذا لم يذعن

دعا كثيراً أثناء سجوده وناجى ربه من بين سيول من النحيب. إهتزت أعضاؤه باكية طالبة الرحمة. الرحمة من الشقاء وطغيان المصير.

ولشدة الغرابة إن هول معدته كان قد بدأ يخمد.

حيا الملائكة وفرغ من عبادته.

بحث عن ركن يكتنفه ولشدة الدهشة أن عيناه بحثتا في كل ركن عن "كرم"، لسبب ما شعر إنه "خبير" ذو علم في هذه الأمور،

إنـه حطـام الـسفينة الـتي سيتمـسك بهـا ليطفـو علـى سـطح الرضـا السماوي. لم يطول بحثه. ها هي ذي ضالته تقترب نحوه ولسبب ما لم يجده لزجاً لحوحاً كما كان بالأمس.

إستند "كرم" إلى الحائط بجواره وزفر بصوت مسموع، قال:

-هيه، لقد عدت.

-نعم.

-سعيد لرؤيتك.

-وأنا أيضاً.

رد "كرم" ضاحكاً:

-مرحى، ها نحن ذا عبرنا إحدى الحواجز، إفـرغ مخلاتـك من أعباءها وخبرني عما لديك، أنت لا تبدو على ما يرام.

قص له ما كان من الكابوس ونوبة القرحة التى باغتته هـذا الصباح.

كان "كرم" ينصت إليه ويهز رأسه من حين لآخـر وأصـابعه

ما إنفكت عن العبث بمسبحة عاجية أنيقة. في النهاية قال:

-لا بأس يا أخي، لا بأس. أنا سعيد لرؤيتك اليوم ها هنا بين إخوانك فى المسجد، إن خطاك إلى هنا لهيَ أُولى الخطوات لإجتياز الدرب الوعر الذي وضعه الرحمن في سبيلك، لقد بدأت في إدراك أولى الغيث.

ثم وضع كفه على كتف "نادر" مردفاً:

-عند عودتك لدارك أريد منك ألا تكف عن الصلاة والتعبد والإستغفار، إن الإستغفار هو سترة النجاة من بحر الظلام الذي سبحت فيه حتى قابلت شقاءك. إستغفر ولا تنس العودة إلى هنا لأداء فريضة العصر سوياً.

أومأ "نادر" برأسه وشد الرجل على يده مؤكداً:

-غيثك في هذا المكان يا أخي، في بيت الرحمن.

* * *

بمجرد أن عبر عتبة داره حتى بدأ لبه العمل جاهداً ليتذكر أين وضع مصحفه المذهب الذي لم يمسسه منذ دهر من الزمن. فتش في ردهات عقله وأركانه طويلاً وفجأة، وكأن شمعة قد أوقدت في

رحم الظلام، تذكر مكمنه. إتجه إلى غرفته وألقى دثار مضجعه أرضاً ثم رفع الحاشية ليكشف عن صف من الأخشاب الموضوعة على هيئة سقف لقاعدة السرير، أمسك بلوح فالثاني فالثالث وأطاح بهم جانباً. مد يده إلى القاع وتحسس غطاء الصندوق الخشبي العتيق ووضع أطراف أصابعه تحت الغطاء وفتحه..

بالرغم من الجروح التى نجمت من العصبية التى فتح بها الصندوق، إلا إنه لم يعبأ البتة، شد المصحف من تحت حطام الرسوم الطفولية الأولى المهترئة وعندما أمسى بين أنامله، نظر إليه ملياً بحسرة خرت لها دموع الشوق والعرفان بالجميل من بين أخاديد قلبه لتتدفق فى مجارى جسده أجمع باعثة الحياة لأوردته التى جفت إثر الجفاء الذى أصابها منذ شهور، وبرفق مسح براحته على الجلد الخارجي للكتاب الكريم تاركاً أثراً من اللمعان ممحواً من تراب السنين وطبع قبلة حانية على سطح الكتاب كما لو كان يقبل جبهة إبنه وإحتضنه هامساً:

– عزيزي، لن أهجرك من بعد هذه الظهيرة إلى ختام المطاف.

* * *

تلا جزأين متتاليين

لم يفهم معظم ما تلا وإستصعب عليه بعض الهجاء ولكنه بالرغم من هذا بدأ يستشعر بنسيم الأمل يداعب أطراف وجهه وإشراقة شمس روحه من بين نبرات صوته الرتيب، تسلل إلى مسمعه صوت آذان العصر.

أغلق المصحف برفق ثم طبع قبلة خاطفة على غلافه وألصقه بجبهته وإستعد للنزول.

* * *

ما أن عبر بوابة المسجد حتى ألقى بخفيه سريعاً وهرول كالمسحور إلى الصفوف المتراصة الساكنة وإتخذ مركزاً في جناح أحد الأجساد المتسمرة. رفع كفيه حتى أذنيه مكبراً ثم إنه أركزهم فوق صدره مسدلاً نوافذ عينيه وأنصت إلى همسه.

* * *

بعد الدعاء والتسبيح، إقترب "كرم" زاحفاً نحوه كعادته مشرعاً كفه تجاهه قائلاً:

- مبتهج أنا لدى رؤيتك هنا ثانية. تقبل الله.

- منا ومنكم.

- هل ستجلس للإستماع للدرس.

- ولكني..

- تذكر ما قلناه آنفاً، وتذكر كم من زمن أفنيت بعيداً عن أرض الطهر، حاول اللحاق بعربات القطار المواكبة وإنس التي تحركت. إن الشيخ "حسين" رجل بهيج وصبوح الوجه، ودرسه لن يطول بأي حال من الأحوال عن خمسة عشر دقيقة، أنت أولى بهذه الدقائق الباهظة أكثر من الشيطان.

* * *

قال الشيخ "حسين":

- الحمد لله الذي هدانا لهذا، و ما كنا لنهتدي لولا هدانا الله..

أما بعد، قال تعالى في حديثه القدسي، من تقرب لي شبراً تقربت له ذراعاً، ومن تقرب لي ذراعاً، تقربت له باعاً. يا معشر الإخوة، ما من أعز إلى الرحمن أكثر من العبد الذي يسعى قدماً

للتقرب إليـه، تـذكر أيهـا الإنـسان، إن الله دائـم التأهـب للإجابـة والإسـتجابة وكمـا قـال عـز وجـل فـى كتابـه الكـريم: فـاذكروني أذكركم. وأشكروا لي ولا تكفرون.

سكت لبضع ثوانٍ متمتماً بصوت خفـيض، مـداعباً مـسبحته ثم أردف :

– نبي الله"يونس" عليه السلام، ما كان الله ليلفظه مـن الهـم والغم لولا أن ناجى ربه مجاهراً فى حلوكة الظلام: "لا إله إلا أنـت سبحانك إنى كنت من الظالمين". ولولا هذا لما أبصرت حدقتيه النـور الربانى ثانية، إقرأ قوله تعالى فى سورة الأنبياء:

"فاستجبنا له ونجيناه من الغم و كذاك ننجي المؤمنين".

ومن جلالته تعالى، أن رحمته وسعت كل شـيء، لا يـشترط أن يكون صالحاً لتدعو الله، ولا أن تكون مـسلماً. الله يجيـب كـل مـن رفع كفيه إلى السماء مجارهاً بأن: يا رب، وعندها تأكد وتيقن تماماً من أن العزيز الغفار ذا الجلال والإكرام بجلال قـدره سـيهرع إليـك للإستماع لصوتك الداعي الذي قد يكون أحب إليه من أي صوت علـى وجـه البسيطة آن ذاك.

* * *

فرغ الرجل من الدعاء وإستغفر ربه وحذا بحذوه جموع الحاضرين ولم ينسوا جميعاً مسح أكفهم على وجوههم. لم يفهم "نادر" لماذا يفعلون ذلك ولكنه تبعهم بالحرف والخصلة.

- هل سأراك في صلاة المغرب إن شاء الله؟

- لا أظن يا أخ "كرم"، لدي الكثير لأنجزه.

- آه. إنها سنتك الدراسية الأخيرة. كان لابد أن أنتبه، لا بأس يا أخي لا بأس!

- هل يمكنك أن تذكرني عند الرحمن؟

- الرحمن لا ينسى عبداً ولا حتى الزهرة في الأريج، ولا الوحوش في البراري. جلالته لا يغفل عن كل ما أبدع. أو ليس هو الحي الذي لا تأخذه سنة ولا نوم؟

* * *

تنشق نشيقاً عميقاً من آناء الليل وطرده بلطف من منخريه ببطء مماثل لخواطره الهادئة وتنهد لدى إبصاره وهيج النجوم في السماء فأشرقت روحه إلى درجة أضاءت ظلام الطرقات قبالته

ومعها إلتمع وجهه بغلالة شفيفة من الشجن.

لعمره ما أحب شيئاً أكثر من ليل الخريف. لطالما إستشعر أن حزنه وشجنه يكادا يهموا إليه بالحديث والتسامر والقص عن المئات والمئات من العباد الموجوعين الذين شكوا آلامهم وخرت دموعهم على وسادته. لطالما تطلع إلى سماء الخريف وأمعن النظر فرأى حشود السحب الأرجوانية تتخذ وتتشكل لترسم له أبطال حكاياتها الحزانى، فها هو ذا وجه لعجوز نوبي مسن دامع المقلتين مسترسلاً في الحديث عن آلام الدهر والأيام التى أجتثت رطب روحه من جذورها. كان هذا هو ليل الخريف بالنسبة له ولطالما عشقه عشق "فاروق" لـ "كاميليا".

واكتفى بهذا القدر من التسكع في شوارع منطقته وإستدار مدبراً من حيث وفد.

دخل إلى العقار ودلف إلى المصعد قاصداً شقته.

باغت المرآة المتلصصة على ظهره ليتأمل صورته الكامنة على سطحها.

هل هو فعلاً يبصر وجهه مشرقاً كسِوارى "كِسريَ"؟ أم لعله

يوهم نفسه لا أكثر؟؟ أم هو مفعول نسمات الخريف الحانية كحضن أمه؟ أم لعله البديع قد بدأ يسربل وجهه بنور الرضا؟

باشرمهجعه وتناول المصحف.

هنا ولسبب لا يدري كنهه، راح يتذكر خطبة الشيخ "حسين".. "لا يشترط أن تكون صالحاً لتدعو الله، ولا أن تكون مسلماً"

لا يشترط أن يكون مسلماً؟! أو لا يستجيب الله سوى للمسلم؟!

هل يدعو النصراني واليهودي الله كذلك؟ وهل يستجيب إليهم؟

هل يدعو الغربيون الله في محنهم؟ وهل يستجيب الله لهم؟ أو ليسوا فجاراً يعاقرون الخمر ويمارسون الرذيلة بلا رادع؟

"إن رحمته وسعت كل شيء"

رحمته وسعت كل شيء؟ إذن لماذا أتلقى ذلك العقاب؟ أليس هو الرحمن الرحيم الرؤوف بعباده؟

"فأذكروني أذكركم"

هل يعاقب الله المخطئ من عباده، أم أتراه يبتلـي مـن يحـب ويبلي من لا يحب؟

هنا فتح المصحف عشوائياً وراح يتلو...

ولكن كلمات الرجل ما تلبث تعاود إدارة نفسها ذاتياً كبكرة شريط التسجيل.

* * *

إشتعل جحيم "دانتي" مجدداً في معدته

هكذا وبدون سابق إنـذار أو قرعـات علـى أبـواب أحلامـه. هجمت الآلام على معدته تنهشها وتفترسها إفتراساً.

تلوى في مهجعـه كـأمواج بحـر الـشمال العاتيـة، قفـز مـن مضجعه وراح يتحرك في الحجرة إياباً وعودة كما لو كان يرقص فوق بلاط سقر.

"تماسك! تماسك! إياك والذعر"

فكر في إيقاظ أمه. هـي تعـرف كيـف تطـرد شـياطين آلامـه

ونيران أحلامه

"إياك والذهاب إياك، ستزول النوبة، ستزول".

ركض إلى المطبخ وفتح الثلاجة وإنتزع علبة اللبن من أحشاءها إنتزاعاً وسكب محتواها في معدته.

"لقد بللت منامتك"

السعير لا يزال يضج.. العرق بدأ يتسرب من بين بصيلات شعره.. عرق بارد، عرق الخوف...! هل سيموت أخيراً؟

"إياك والذعر، إمسح عرقك فلا وجود له.. الذعر ليس سوى سحابة كثيفة كلما إرتعبت كلما إزدادت كثافتها فتغمرك بأمطارها(.

"فاذكروني أذكركم"

* * *

وضع يده على معدته وبإعياء تشبع بسكرات الألم أردف:

بسم الله، بسم الله، بسم الله..

هنا بدأت معدته تبرد وبدأ جسده يلين.

كأن هناك من سكب جرعة من نهر الكوثر إلى الدرك الأسفل من جهنم.

مشى الهنيهة إلى حجرته وتلفح بدثاره

إرتخت عضلاته أكثر وهو يستعيد مفعول الذكر الذى حدثه عنه "كرم" للآلام البدنية.

تلا آية الكرسي وأسدل ستائر عينيه.

* * *

تكررت الكرة مراراً.

وفى كل مرة إستنقذ ربه وكان الخلاص حليفه. لكم من مرة وضع كفه على معدته المستيأسة مردداً الأدعية والأذكار التي باتت جل ما يردد تلك الأيام. بل إنه إستبدل الحان الموسيقى بألحان السماء وإتقدت نيران علاقته بالله أكثر فأكثر، أمسى لا يمارس أياً من نواميس حياته إلا من خلال الأذكار. إنتظم نومه نوعاً وقلت

غارات القرحة على معدته وتبسمت أمه أخيراً لدى مرآها للتغير.

كما أحكمت وشائج الصداقة بينه وبين "كرم"

عرف منه إنه وحيد، توفت زوجته بعد زفافهما ببضع سنين تاركة وارثها سيل من دموع أرمل على شفا هاوية الجنون وإبنته التي ما إنفكت تفتش أرجاء المنزل عن الحنان وأعناق الأمومة التي يأست من التنقيب عنها في كنف الأب الذي لم يجد مخرجاً من الحياة خلف قضبان العيادات النفسية سوى الحياة في المسجد بيت الله تعالى الذي بات على يقين أن دينه هو حمامة السلام التي ستحلق به عالياً عن مستوى المعارك الدنيوية وأنه لا سبيل له سواه كي يتمكن من بلوغ الشاطئ الآخر للحياة، فأطلق لحيته وخلع القميص ووضع الجلباب القصير وأضحت حياته محصورة بين عمله والمسجد والبيت حتى إستقرت موازينه وتمكن من تربية إبنته نعم التربية.

وفي ذات يوم عقب صلاة المغرب، مال "كرم" على أذنه هامساً:

- الجلباب..!

- ماذا..؟؟!!

- لماذا لم ترتدى الجلباب بعد؟

-...

- هه؟

- الحقيقة لم تواتنى الفكرة من قبل و...

-وها أنا ذا أعرضها عليك، لقد صرت من رواد المسجد والمشتاقون لرحمة الرفيق الأعلى، فلما لا ترتديه؟ إنه سنة نبوية!

وعندما تهيأ للإنصراف نادى عليه في أرجاء المسجد الهادئ:

-نادر..

-...؟

-أراك في الجلباب قريباً.

قالها مبتسماً فى ود مشجعاً.

* * *

"جلباب..؟؟ وهل سأدخل الجنة بعد إرتداءه؟"

* * *

"جلباب؟ وهل تشبهت بكل أخلاق النبي كـي أبـدأ بإرتـداء الجلباب؟"

* * *

"جلباب؟ وهل هذا مفتاح الشفاء؟"

* * *

وقف قبالة المرآة متأملاً وجهه المكدود لبرهة، بينما أطرافه لا تزال تمسك بتلابيب الجلباب المنسدل على الأرض جوار قدميه. كان يمسك بأطرافه بإشمئزاز كما لو كان وباءاً. كان يرفعه في الهواء من حين لآخر فارداً إياه أمام عينيه الذاهلتين ثم لا يلبث أن ينزلهما في خزي وخجل فقط ليتكوم ثانية جوار قدميه والحقيقة إنه بات يشعر أن الجلباب سينطق بعد أن يفيض به الكيل صارخاً: إرتديني أو كومني وإلق بي في أعماق الخزينة كما كنت. لعمري لقد عشت نسياً منسياً منذ وفاة والدك ولن يضيرني أن تهجرني دهراً آخر من الزمان.

وكما لو كانت كلمات الجلباب الصامت قد حركت نسيم الجرأة داخله، وضعه في غل وفرده في إصرار على تعاريج جسده الناحل ونظر في المرآة ليبصر هذا الكائن النحيل في جلبابه الأبيض محدقاً لإنعكاسه في خجل وإستحياء إلى درجة إستحالة لون بشرته من الشحوب إلى الحمرة بالوردية.

بعد أن أمعن النظر ملياً تسائل:

- يا الله، هل هذا هو الإيمان؟ هل أمسيت من أهل الجنة؟ هل سيتطهر جسدى من السقم؟

تحرك من أمام المرآة وتهيأ للنزول للمسجد.

بسرعة الضوء عبر ردهة المنزل فغرفة المعيشة أمام عيني أمه الذاهلتين، كان يشعر بخجل لا مثيل له ولم يرغب أن تلمح التبدل الذي حل بهيئته.

- السلام عليكم!

قالها بسرعة وإقتضاب وفتح باب المنزل كلص هارب من مسرح جريمته ولم ينتظر سماع الرد من أمه، فقد أغلق الباب بعنف كسجان يزج بمتهم فى زنزانة بسجن القلعة!

عبر بوابة العقار أمام عيني زوجة الحارس التي لمح شبح إبتسامة ساخرة ترتسم على ثغرها لدى إبصارها للأستاذ "نادر" في الجلباب.

- السلام عليكم!

قالها وقد إتسعت خطواته ليبتعد عن مسرح العقار قبل أن يلقي أحداً آخر من السكان فشرع يسارع في الخطى نحو المسجد مركزاً عينيه بالأسفلت الرمادي الداكن دون أن يرفع حدقتيه عنه، فهو لم يكن يجسر برفع رأسه نحوالمارة الذي كان على يقين إنه لو فعل سيرى علامات إستفهام وتعجب فوق رؤوسهم كما كان يراهم فى القصص المصورة في طفولته.

* * *

دلف إلى قاعة المسجد ذات السماء المزينة بضياء الطهر الأبيض المحلقة فوق الرؤوس كالبراق حاملاً أنقى ما حملته الأرض منذ إنشاءها.

هنا فقط، رفع رأسه فى شمم وشد جسده فى إباء.

كان أول من أسقط بصره عليه هو شاب في العقد الثـاني يتلـو القرآن وما أن تقابلت أعينهم حتى إرتسمت على وجهه بسمة عذبة خالصة من ينبوع المودة، وفي ثوان كانت عـدوى البـسمة قـد إنتقلـت من وجهه لتغمر وجوه الحاضرين جميعاً، ها هم هؤلاء الأحبة وقـد اشرقت وجوههم وتهللت أساريرهم وإنفرجت ثغورهم عـن ضـحكة أطل لها وجه القمر تحت قبة المسجد.

اندفع "كرم" نحوه فاتحاً ذراعيه باغياً أسر الأرض أجمعين بين ضلوعه وإعتصره برفق مربتاً على ظهره مردداً:

-يا أخي، إن ضياء إيمانك قـد أشـرقت لـه شمـوس الكـون بأسره والأهم من هذا هو شمس صباح جديد لحياتك أنت.

ولكن كل ما كان يعتمل في لبه فـى هـذه اللحظـة هـو سـؤال واحد: ها أنا ذا قد أضحيت من هؤلاء المؤمنين، فهل سيشفيني الله؟

* * *

بعد إستقرار طال أسبوعاً، تلبـدت الغيـوم مـرة أخـرى فـى سماء حياته، حدث ذات صبيحة، أن إستيقظ مـن رقدتـه المسائية

على رؤية مفزعة جافت مخالبها مضجعه وحرمته من شـهد النـوم. كانت الساعة قد شارفت الثانية عشر ظهـراً. فـألقى بحمولـة غطـاء نومه جانباً ونهض متثاقلاً ومائة وسواس ينخر سطح عقله المرهق.

إقترب من الشرفة وأزاح بابها الزجـاجي جانبـاً ودلـف إلى الداخل. كانت السماء سـرمدية داكنـة بـلا غيـوم، زجـت بالـشمس خلف لجة كثافتها وأتون كآبتها. الهواء متصلب، جافئ، خالٍ مـن روح الحياة. حتى سكان المنطقة كما لـو كانـت قلـوبهم إستـشعرت إنقباضة قلب السماء فتركوا أعمالهم وشـأنها حتـى يمـر هـذا اليـوم المنعدم الألوان بستر الله وعنايته! إعتصر المشهد قلبه وأطبق الهـواء الجاثم الراكد كالصخر على صدره فما كان من مناص سـوى أن يعـود أدراجه إلى داخل المنزل الذى بدا له بهيجاً مشمساً بعـد أن إطلعـت عيناه على عذاب القيامة المقيم بالخارج كان حدسـه يؤكـد لـه وقـوع أمراً مقيتاً اليوم. خالجه قلبه بهذا، وحادثته حواسه عنه.

* * *

أذان الظهر.

إرتدى جلبابه وإنتعل نعليه تأهباً للصلاة

أراح أنامله على مقبض الباب في تردد وظلت معلقة على هذا الوضع لبضع ثوان بعد أن عصفت رياح الخوف والقلـق محـذرة إيـاه مـن الخطـر المحـدق بالخـارج الـذى يـدخره لـه يومـه، إلا إنـه في النهاية أدار المقبض فى حزم وخطـا خـارج الـشقة متجهـا للمـصعد الرابض بالخارج فى فوهة الدرجات. خرج من العقار بخطى واسعة واثقة في محاولة لتبديد الرعشة التى غزت ساقيه من قمة فخذيه إلى أخمـص قدميـه، حـاول جاهـداً التحليـق عاليـاً إلى سمـاء الخريـف اللطيفة الحانية التي طالمـا داعبـت أوصـاله فـى دلال، ولكنـه فـشل بـالرغم مـن هـذا، فقـد تمكنـت وحـشة اليـوم وشـوائبه المحلقـة كالأبالسة فى قبة السماء الموبـوءة بـالبؤس والأتربـة، التـى راحـت تصفعه بقسوة، من إختراق حصون خياله التى طالما حاول بلوغها.

بدأ يستـشعر بـوادر تعـب، ثمـة مرزبـة تنهـال دقـاً علـى مفاصله.

مسام جلده تبصق العرق ليرتفع بلزوجته على سطح وجهـه البارد كـشتاء ينـاير، رعـشة الخـوف تنتـشر كالـسرطان في عروقـه لتسكره إمارات القلق والخوف الغير مفهوم.

هنا قرر أن الوقت قد حان. سيلجأ لله لرفع غضبه عنه، راحت شفتيه ترتعشان متمتمتان بالآيات الأخيرة من سورة البقرة، وكما لو كانت بمثابة إستفزاز لأعراض مرضه، غلت كل مخاوفه الدفينة المؤودة في أقصى بقاع عقله وتحرر رعبه الأسير بين حطام الزمن المنقضي وراح يرج عقله رجاً كزلزال القيامة، فإرتقى بصوته إلى درجة أكثر علواً حتى إستحال همسه مسموعاً لكل المارة الذين بادروه بنظرات مرتابة متشككة وأطبق الذعر بقبضته الفولاذية على حلقومه حتى بدأ في ترديد المعوذتين جهراً على نحو أفزعه هو نفسه وبينما كانت ساقاه تمشي به من تحته والرؤية تسكب بحبرها الأسود أمام عينيه المتسعتين كالفنجان، راح يتساءل: لماذا خذلني الله؟

* * *

-هل يمكنني تمديد ساقاي على الطاولة؟

-أريدك أن تبذل قصاري جهدك لتكون مرتاحاً، حتى لو تطلب الأمر خلع نعليك.

ودون كلمة أخرى مدد ساقيه على الطاولة المقابلة مستشعراً

مذاق الراحة يلف ساقيه بمنديل الإسترخاء الحرير.

دارت عيناه ببطء في الغرفة المحيطة.

لم تكن تمت بصلة لعيادات الأمراض النفسية التي طالما رباه التلفاز على هيئتها. الغرفة ضيقة تكاد تعتصره بين أحضانها المطلية بلون شاحب كالطاعون، ليست بارحة مترامية الأطراف كما كانت في مخيلته. الإضاءة جريئة وقحة تكاد تخطف بصره إثر شهوقها وليست واهنة خجول، ليست كما كان يظن، هو نفسه سجين كرسي خشبي داكن متصلب كقلب حاكم أموي في قمة جبروته، مما أشعره بالعجز وقلة الحيلة، كان ينتظر بلهفة لحظة التمدد على الأريكة المتراخية التي يغوصون في لحمها الوفير المكتنز بالراحة والسكينة. الطبيب نفسه لم يكن يستعمل تسجيلاً كما شاهد في الأفلام. لم ينفك التلفاز عن الكذب علينا طالما ظللنا سجناء شاشته الخادعة المثخنة بالكذب.

فرغ الطبيب من خط بضعة ملاحظات سريعة من طراز الطلاسم التي آلفه رؤيتها من كثرة تردده على أبناء المهنة الفترة المنصرمة. وضع القلم جانباً ونظر لمريضه مردفاً:

– لعمرى نحن العرب وعلى الأخص المصريين نتعامل مع الله كجلاد يترصد لنا بسوطه الحاد كلما إرتكبنا خطيئة ما. بل إننا نتداول فى الأغلب القصص الدينية أو الأحاديث التى تشير إلى عقوبة الرفيق الأعلى لإبن آدم، لماذا؟ لأنه قد إرتكب هذا وذاك فعاقبه الله على فعلته، كما لو كان الله أبانا المتشدد القاسى المتحفز لخطايانا دائماً، أو ليست التوبة مفتوحة الوصيد طيلة الوقت لكل من يبتغى طرق بابها لإستغفار الله؟ أم تحسبه يتلذذ بالعقاب؟

– إذن لماذا يحدث هذا كله؟

بدأ كأنه على إستعداد لتفجير صنابير البكاء إذ قال هذه الكلمات، إلا أن الطبيب إنتظر بضع ثوان ثم سحب منديلاً من العلبة الكرتونية المجاورة وناوله إياه، وعلى صوت نحيبه سأله:

– هل سمعت عن كلمة "إبتلاء" من قبل؟

أومأ برأسه بأن نعم، فإستطرد الطبيب:

-إذن لماذا ترجمت الأمر إلى "بلاء" أو "عقاب" وليس "إبتلاء"؟

– قلت لك إنى رأيت "النبي" في المنام وهو..

- ليس شرطاً أن يكون ظهور النبى فى المنام رؤية، إنما ما رأيت فى منامك ليس سوى حلم، حلم مزعج، كابوس آخر من سلسلة كوابيسك المتكررة. وليس رؤية، أتحسب نفسك ولياً صالحاً لترى رؤية؟ من أنت كي يتفضل الله عليك برؤية؟ هه؟ بل من نحن جميعاً؟!

ثم إنه أشعل لفافة تبغ فى شيء من العصبية. سحب نفساً عميقاً قبل أن يردف:

- أنت مريض يا بني، مريض هذا كل شيء، ثم إنك لماذا ترجمت الأمر إلى عقاب؟ لماذا لم يخطر ببالك إنه مجرد إبتلاء؟ إبتلاء كالذي يصيب دولاً كاملة!

- لحظة، أليس فساد الدول وجبروتها وراء إبتلاء الله لها بالكوارث الطبيعية؟

- لو صح قولك لكانت أوروبا صاحبة الحظ الأوفر في الكوارث، ولكانت دولة صالحة كـ- "إندونيسيا" آمنة غير مأهولة بالزلازل، يا بني لا قاعدة للإبتلاء أو البلاء ولو كان هناك قاعدة فإننا كأبناء آدم لم ولن نعتلي الحكمة الإلهية وراءها. إن هذه

غيبيات يا بني، غيبيات لن نسبر أغوارها ما حيينا. هل تستطيع الحسم بأن الآلاف الذين يموتون سنوياً جراء السرطان وفيروس سي يمرون ببلاء لسوء خلقهم وتجبرهم فى الأرض أو يمرون بإبتلاء من عند الله ليختبر إيمانهم؟ هل يمكننا الجزم بأن ما حدث للولايات المتحدة في الحادي عشر من سبتمبر هو عقاب من عند الله لجبروت الإدارة الأمريكية؟ أو لم يكن داخل هذه الأبراج أبرياء لم يبتغوا سوى كسب قوتهم اليومى؟ ألم يكن من بينهم أمريكيون ساندوا ودافعوا عن القضية الفلسطينية أكثر منا نحن معشر العرب؟ ألم يكن بينهم عرباً ومسلمون عملوا بالولايات المتحدة؟

إبتلع "نادر" ريقه في تصعب وغمغم:

- بلى، يوجد!

دس الطبيب سيجارة بين شفتيه وأشعلها مردفاً بصوت مكتوم جراءها:

- إنس قضية البلاء والإبتلاء هذه وثق بشيء واحد يا بني، أنت مريض وهذا كل شيء، كلاً من نفسك وبدنك مريض، ولكن شفاء قروح معدتك مرهون بالجواب على سؤال آخر.

- ما هو هذا السؤال؟

نفث الطبيب سحابة دخانية فى أرجاء الغرفة متساءلاً:

- ماذا فعلت أنت لمداواة قروحك؟.

صمت برهة ثم أجاب:

- لجأت لله.

- هذا أمر مفروغ منه، إننا جميعاً لا زلنا بعد أجنة في بطون العناية الإلهية، ولكن عصر المعجزات قد ولى يا بني، وإستجابة الله للدعاء ليست زر جاهز للضغط كلما ضاق بك أمرك. ليست عصا سحرية كلما إستعملتها إنقشعت مشاكلك.

صحيح إننا جميعاً خرافاً نلهو ونرتع ونضحك ونبكي في حظيرة الله، قد يذبحنا هذا الرجل اليوم، قد يأكلنا ذاك غداً، قد يطلقنا هو لنسرح ونهيم ونضل سبلنا في الأراضي، ولكنه سبحانه بعنايته الإلهية يوجه خطانا إلى أزقة الأمان والمعرفة كي نبحر في بحوره آمنين، وإنها لرغبة الرحمن الخاصة التي قد تضللنا الطريق وتبعدنا من تحت غمامة الرحمة لنلقى مصائرنا المحتومة.

جذب نفساً عميقاً من اللفافة ونفث دخانها مستطرداً:

– ولكن هذا لا يعني أن نزج بأنفسنا وراء قضبان البكاء والإستسلام وأن نرفع أعلام ورايات اللجوء لله دون أن نتحرك ساكنين. إن الإسراف في الدعاء والتضرع والقيام الليلى والذكر لن يغيروا من الواقع طالما لم تجتهد أنت فى رفع شراعك لمواجهة العواصف، إن الدواء وحده لا يفلح ما لم يؤمن المريض إنه قادر على مواجهة المرض.

تمتم مريضه بصوت مختنق:

-ألا بذكر الله تطمئن القلوب.

– وكذلك تذكر إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم. إن ذكر الله قد يهدئك لبعض الوقت ولكن المشكلة تظل على السطح ما لم تتحرك أنت لإخماد نيرانها بطريقتك.

رد مريضه بشيء من التهكم:

– أرى إن عقلك قد نال قسطاً لا بأس به من الماركسية.

– أنا لم أقل أبداً إن الأديان مخدر الشعوب، معاذ الله أن أصف الكتب المقدسة هذا الوصف. يا بني إن الدين هو عصب الحياة، ولكن الأعصاب لا تحيا من دون أوامر العقل، لا يمكن أن

تعيش على ذكر الله فقط من دون إرادتك الخاصة للحياة، من دون رغبتك في البقاء.

نظر "نادر" إلى قدميه محاولاً تحليل ما يقوله الرجل إلا إن الطبيب بتر فكره مواصلاً:

-يا بني إن الدين ليس زراً تضغطه كلما إكفهرت السماء فتنقشع الغيوم وينير الوجود وتغرد البلابل. توقف عن إعتبار الدين والذكر الإلهي ملاذاً وغطاءاً تتدثر به كلما هبت ريحاً صرصراً، يا بني أَحِب الله، أَحِبه لأنه الرحمن الرحيم الكريم الذى يكرمك من دون مقابل، تقرب له لإنك تحبه وليس لتجنب إبتلاءه أو بلاءه.

زلزلت العبارة الأخيرة كيانه، إذ كان الأمر بمثابة سكب زجاجة من الكحول على جرح غائر متهيج حتى إكتوى بلهيب الحقيقة.

إسترخى الطبيب فى مقعده كما لو كان قد فرغ لتوه من إلقاء كلمة فى مؤتمر عالمى وقال:

- أَحِب الله يا بني لا تخافه، تقرب له كما تشاء لا لأنه

يسلط سيفه على نحرك، بل لأنه الرحمن الذي علمك القرآن والبيان، الرحمن الذي خلقك فسواك فعدلك، في أي صورة ما شاء ركبك، الرحمن الذى خلق الإنسان فى أحسن تقويم.

رفع "نادر" رأسه نحو الطبيب ودمدم بعد أن راح يقضم بضعة أظافر من أنامله:

- كيف أعود للحياة إذن؟

- هذا يعيدنا للسؤال الذي سألته لك فى بداية الجلسة: ماذا فعلت أنت لمداواة قروحك؟ ماذا فعلت لنفسك لتحيا؟ ماذا فعلت لتغير نفسك؟

تحرك إنساني عيني "نادر" في أرجاء الغرفة بحثاً عن إجابة حتى غاب لبه في مجاهل فكره، وعلى صوت الطبيب الخفيض تنبه إلى قول الرجل:

أنت فى العشرين من عمرك ولا تزال غامضاً مبهماً كالمياه الراكدة المعتمة بالنسبة لنفسك. أنت لم تفكر البتة في نبش الغبار المتراكم على روحك ولم تحرث بمحراثك في تربة الدنيا لتبصر الضياء المأفون عن عينيك. جل ما تفعله هو التوجس والإرتعاد من ما يخبأه

الغد. ألم تفكر من قبل لماذا ترى الموت بإصرار محموم في جل كوابيسك؟ إن أحلامك كلها تتشدق بالموت لأنك تخافه، صحيح إن جميعنا نخشى الموت ونرتعد لمجرد الخوض في الحديث عنه، ولكن بالنسبة لك أي "نادر" خوفك له أبعاد أخرى، أتعرف السبب؟

هز رأسه نافياً فأردف الرجل بعد أن جذب نفساً عميقاً من سيجارته:

- أنت تخاف أن تموت دون أن تستكمل رسالتك في الدنيا.

فغر فاه متعجباً:

– رسالتي في الدنيا؟

– أو لما خلقنا يا بني؟ لماذا خلقت أنا؟ لماذا خلقنا أجمعين؟

– خلقنا لنعبد ونطيع الله عز وجل.

– هذه هي الإجابة التي نرددها جميعاً وبالمناسبة هي صحيحة ولا ضباب حول صحتها، فهي مذكورة في اللوح المحفوظ، ولكن هذه ليست برسالة، إنها الوسيلة الأنسب للتعبير عن شكرنا وإمتناننا للرحمن إزاء نعمه علينا وهو أمر يبقى وسيظل واجباً تجاهه، ولكن ألم تتساءل يوماً، لماذا خلق الله كل منا مختلفاً عن

الآخر. أنا أتكلم هنا رسالة الفرد في المجتمع، عن التغيير الذي يحدثه في أراضي الله، الشيء الذي يكتشفه البعض لنشر بذوره في النجود والفلاة ليجني الخلق ثمار ما زرع.

بدت آيات الحيرة تحتفر في وجه مريضه، فدفن لفافة تبغه في فنجان قهوته وتسرب الدخان من كلا منخريه مضيفاً:

- لقد خلق "كلود مونيه" ليعلمنا الفن التأثيري، وخلق "سارتر" ليحدثنا عن الوجودية، بغض النظر عن صحة معتقداته ولكنها تركت بصماتها في صفحات الفلسفة، وخلق "لينين" لتطبيق شيوعية "ماركس"، خلق "ماجلان" لكشف رأس الرجاء الصالح.

- وهل هذا يعني أن نصير جميعاً علماء؟ أيجب أن أكون مكتشفاً كي أنشر رسالة فكري أو إكتشافي؟

- كلا، ليس هذا ما قصدته، إن كل منا صاحب رسالة، وليس المفترض أن تصير عبقرياً أو شهيراً. جل البشر لهم أدواراً ما في تعمير الأرض وإنشاءها وتعليم الغير ونقل علمه وفكره في أنحاء الكرة الأرضية وإذا كان الأمر مقتصراً على عبادة الله وطاعته وذكره ليل نهار، فلما إشتغل الأنبياء بالحِرَف في رأيك؟ لماذا عمل "داوود"

بالحدادة؟ لماذا عمل المسيح مع يوسف النجار؟ لماذا إشتغل معظم الأنبياء بالرعي؟ لماذا درست أنا الطب النفسي؟ أليس لمساعدة مرضى الوسواس القهري والإكتئاب؟ لماذا صار معلم اللغة معلماً؟ أليس لنشر اللغة المقتصرة على أبناء بلدها ويساعد على تجانس العالم أجمع؟. لماذا عمل هذا بالهندسة المدنية؟ أليس لتشييد بيوتاً ترعى بشراً ويكبر أطفالاً تحت سقفها؟ الصحفي، ما هي رسالته؟ أليس التأثير على الرأي العام إحدى مهامه؟ الموسيقار، الشاعر، الرسام، أو ليسوا هم غذاء الروح لبشر آخرون داخل شرانقهم في إنتظار اللحظة المناسبة للخروج للدنيا بفكر جديد وفن جديد؟ أرأيت؟! كلنا صاحب رسالة يا بني، كلنا يعمر الأرض في إختصاصه، كلنا ندير الدفة للبقاء الكوني، بل كي نظل نحن أحياء.

سعل سعالاً حاداً مما شجعه على وأد لفافة تبغه في فنجان القهوة المقابل، صمت هنيهة وقد سهمت عيناه بعيداً في العدم قبل أن يقول وقد باتت علامات التأثر واضحة في ملامحه:

– أتعرف يا بني، كنت في بعض الأحيان يشطح خيالي في فكرة لطالما أرقتني وأفزعتني، ماذا سأفعل بعد إعتزال مهنتي؟ ماذا

سيحل بي إذا لم أجد سبباً أحيا من أجله؟

نظر للسقف مردداً في أسف:

- أظنني سأموت.. سأموت يا بني يوم يجدني الله بت بلا منفعة لهذا الكوكب، سأموت يوم يجدني وقد بدأت روحي تشح من وقودها الحيوي ودماء رسالتي قد تجلطت في عروقي، يومها ويومها فقط، سأغمض عيناي وأنتظر سفينة الرحلة الأخيرة.

نظر "نادر" ملياً إلى أرضية الغرفة البيضاء اللامعة وإنفرجت أنفاسه أخيراً بعد أن أسرها طويلاً خلف قضبان رئتيه إثر المد الجارف الذى سحب عقله إلى محيط الأفكار العميق. ظل ينقل عينيه بين وجه الطبيب الذى كان مشغولاً بقدح لفافة تبغه المائة فى هذه الجلسة.

تمتم بصوت خفيض دون أن يرفع بصره من الأرض:

- أشعر إني أهدرت حياتي سدى دون أن أدرك كيفية الحياة في المقام الأول. كأن حياتي وسنيني الماضية كانت مجرد هلاوس.

- أنـت لم تحيـا قـبلاً يـا "نـادر" منـذ اليـوم يمكنـك تعلـم الحياة. لقد فاتك القليل فلا تقلق، يمكنك أن تبدأ منذ الآن. لا زلـت شاباً عفياً ملئ بالأفكار والصحة. أنت سـليم يـا بـني، غـير مـصاب بأية علة، علتك بعقلك. قـد يكـون عقلـك مـشوشاً متـداخل الأدغـال ولكنك ستتعلم كيف تروضه.

ثم سحب نفساً عميقاً مـن لفافـة تبغـه تبعهـا بنوبـة سـعال قصيرة مضيفاً:

- أَحِب الدنيا يـا بـني، أَحِـب الـدنيا كـي تريـك هـى سـر جمالها، وأَحِب نفسك، أَحِب نفسك وتذكر أن الدين ليس زراً تضغط عليـه لتنجـو مـن شـقاءك وتـستظل وراء عباءتـه لإخفـاء فـشلك في الوصـول إلى رسـالتك وماهيتـك.ولا تنـسى المواظبـة علـى العـلاج، فصدقني ستشعر بالتحسن بعد تناوله، إن جزء بسيط مـن مـشكلتك يكمن حلها في هذه الأقراص!

ثم إنه باغته إذ فجأة بنظرة إلى ساعة يده متمتماً:

- الساعة الخامسة، إنتهت الجلسة، أراك بعد أسـبوع مـن اليوم لا تنسى تحديد ميعاد هاتفياً.

* * *

خرج من عيادته شاعراً بولادة جديدة لذاته.

إستقل سيارة أجرة وإحتل المقعد الخلفي. كانت كلمات الطبيب لم تنفك بعد عن لفح عقله بحرارة صداها الذي بات يهز ردهات رأسه بهزيمه.

هنا كمن أعيد بعثه إلى الحياة من سباته الأبدي، إلتفت فجأة إلى النافذة المجاورة محدقاً فيما وراء زجاجها إذ لمح مشهداً أومض غرفة في عقله حالكة السواد، غابرة الأثاث متصدعة الجدران. أدار رأسه للسائق وصاح به:

- سأنزل هنا!

ضغط السائق المكابح بعنف وترجل هو خارج السيارة.

تقدم الهنيهة نحو مقصده.

كان الوقت غروباً، ولكن أطياف الشمس كانت قد يسرت الرؤية نوعاً مما ساعده على إبصار حديقة خضراء مترامية الأرجاء يحيطها سور حديدي شاهق المدى، أطلت الأشجار العجوز والنباتات برؤسها من بين فتحاتها.

إقترب هو وأطل من بين أعمدة السور على المكان.

كان المكان مفعماً بعبير الماضي، كل ما حوله يضيء غرفاً مظلمة في ردهات عقله المنسية. عطر الذكريات يموج في أرجاء المرتفعات الخضراء التي أيقن الآن أنه آنسها في طفولته. نعم، هنا أمضى طفولته. ويا لها من حقبة.

رفع رأسه نحو السماء الأرجوانية ليرى أن فرشاة الوجود قد لطختها بصبغة رقيقة من اللون الأزرق القاتم وهبت نفحة عطرية من مسك الخريف الليلى مُتسللة إلى منخريه لتنساب بهدوء نحو رئتيه لتخترق خياشيمها وتثلجها بأنسامها النقية.

أغمض عينيه ورفع أنفه نحو الرياح.

أشرع نوافذ جسده وخلاياه لتتشرب ذلك الرحيق الرباني الذى إفتقده منذ كان صبياً في الثالثة عشر.

اطبق بكلتا يديه على الأسوار الباردة. إنتقلت برودتها كالكهرباء إلى جسده كي ينتفض كالملدوغ. رفع عينيه ونظر نحو السماء مرة ثانياً ليجد إنها إستحالت إلى لوحة فنية يستصعب على مئات الفنانين مزج خليط ألوانها الساحر وإختيارها. رآها وتمتم: يا إلهي العظيم، إن هذا المشهد لهو أجمل هدية تلقيتها طوال

العشرون سنة الماضية. إنه الجمال الرباني متجلياً كفلق الصباح في خضم ظلمة الغروب. تمنى لو كان بيده الإمساك بزمام الزمن كي يستبقي هذه اللحظات الأثيرة للأبد ولكنه آسفاً كان يدرك إنه مجرد إنسان. إنسان وما بيده سوى إستغلال هذه اللحظات حتى لو كان الثمن حياته.

وهنا، ألفى نفسه يستمسك بأعمدة السور الحديدي بعزم ويتسلق بكلتا ساقيه. شعر بألم مضن في ساقيه، فهو لم يحركها منذ ما يشارف السبعة شهور، ولكنه لم يسمح لعود عزمه أن ينثني من أجل هذه الترهات. إنتزع آخر قطرة من القوة في أغواره وبدأ في الصعود حتى إعتلى قمة الحاجز.

وللمرة الثالثة، هب مسك الخريف مداعباً وجهه كما لو كانت لمسة حانية من يد أمه، الزهرة النادرة، ذاب رحيق الحياة وجمالها في دماءه بعد ما تجرع ثمالة النسيم. هنا بدأ في الهبوط إلى الناحية الأخرى. نحر الألم ساقيه وبدأ يستشعر سم العجز يتدفق إلى نخاعه وهنا، أعلنت مفاصله عن خيانتها ووشت بإرادته، فسقط أرضاً.

نهض متثاقلاً منفضاً الزرع الجاف عن كسوته. تأمل ما

حولـه ملياً. قـرع قلبـه طبولـه في وجـل وإلتمعـت نجـوم الحـنين والذكريات في كلتا مقلتيه. لقد كان يعرف هذا المكان. إرتمت روحه في أحضان الخضرة اللامعة اليانعة فور تيقنه من هويتها بالذكريات التى تحملها تلالها الصغيرة في مخلاتها. لقد قـضى طفولتـه مترعـاً في هـذه الجنـة، حتـى إن ذاكرتـه إسـتدعت لفورهـا أرواح أصـدقاء طفولته الغائبة التي إستلقت معه فوق هذا الخضار تاركين أحلامهم وأمانيهم تداعب عقولهم الطازجة الطاهرة. أرواحهم الـتي ضـحكت معهم ملء قلوبهم البيضاء الكبيرة كقصر سلطان عربـى قـادرة علـى إحتـواء الـدنيا بأسـرها في غرفهـا ناسـية أو متناسـية قـسوة العـالم الكامن خارج هذه الأسوار. فقط خلف هـذه الأسـوار حلقـت الـبراءة بأجنحتها البيضاء فوق رؤوسهم لتظلل عليهـا مـن شمـوس التلـوث والواقع الأعجف المصفر كخضرة جافة يأست من رحمة الله.

بالرغم من الغياب الـشبه التـام للـشمس إلا إنـه إسـتطاع أن يرى ما لم يره منذ عشر سنين. كانت الكثبان الخضراء الممتـدة أمـام ناظريه تناديه بحنو ليدنو أكثر فلم تكذب ساقيه خـبراً وقادتـه إلى أغوار الحديقة. تقدم حتى بلغ أكثـر النقـاط إرتفاعـاً. هفـت روحـه

لنسيم نوفمبر الساحر فطاوعها فاتحاً ذراعيه لينهل ما طاب له من نبع الحياة، فتح ذراعيه ليحتضن الوجود في رفق ليضمها إلى بدنه المشرق بلمعة الحياة، إعتصرها حتى اسرها خلف ضلوعه وزج بها في زنزانة قلبه.

كان قد أيقن شيئاً خلال تأمله الشفيف، كان قد أيقن إنه حين يعود لداره سيرسم أجمل وأرق لوحة رسمها في حياته، لوحة تشع حياةً إذا صح القول، لوحة تعيد الخضار الأصفر الجافي إلى خضرته السابقة، لوحة تعيده إلى الحياة ثانية، الحياة التي أبصرها اليوم فقط.



"تستضيف أمانة الشباب لحزب "الوفد"، الكاتب و المفكر "أشرف الصباحي" فى ندوة ادبية يعقدها الحزب بناء على طلب شباب الحزب المهتم بالأدب و الفكر الإجتماعي، تعقد الندوة يوم السبت الموافق 2005/2/16 بالمقر المركزي للحزب و يكون ذلك في تمام الساعه السابعة مساءاً، والدعوة عامة!".

هزت الرجفة أناملي الممسكة بأطراف الجريدة في حين راحت حدقتي تعتصر جاهدة سطور الخبر المعتلي العمود الايسر

من الصفحة، بعد أن باتت معالمه باهتة و مضطربة.

الغيوم تتلبد أمام عيناي. العرق البارد يواصل رحلتـه عـبر وجنتي. زوجتي تقول شيئاً ما، ولكن عقلي غدا بعيدا.

إن "أشرف الصباحي" أضحى كاتباً مشهوراً.

" أشرف الصباحي" هو ضيف لنـدوة أدبيـة يعقـدها حـزب "الوفد"..

زوجتى ماتزال تثرثر جواري، أظنها تتسائل عـن قطـرات العرق المحلقة علي جبيني.

وهنـا أضـيئت خلايـا ذكريـاتي، و سـافر لـبي إلى بـساتين الماضى.

لقد هزمني "أشرف الصباحي" ثانية.

أنا أمقت "أشرف الصباحي".

اسمه يدوي فى أذني كهزيم الرعد و يرج عقلـي كـالزلزال، ولم لا أكرهه وهو الشائبة العالقة بالهواء التي تهتـاج لهـا رئتـاي

كلما جاهدت للتنفس. ذلك الفتى الفاسد بقامته الشامخة و بنيانه المتين. ذلك الفتى الذي ما انفك عن هزيمتي كلما شيدت جدار النجاح. إن "أشرف الصباحي" بالرغم من أنه أفسد فتية المدرسة، إلاَّ أن جل الطلبة يحاولون إسترضاءه محلقين حوله كالاسماك الصغيرة التي تنظف انياب القرش المفترس، حتى الأساتذة كانوا يجتنبونه ويلاطفونه بمعسول الكلام، حتى إذا طرده الأستاذ من الفصل، فعلها ممازحاً إياه محاذراً لسانه الحاد كالسوط.

كان الفتى قوياً بحق، نفساً و بدناً، نظراته تتحدى وتترقب و تتيقظ للجميع. برع الفتى في مجابهة الجميع في أى شئ يمت للشجاعة و القوة البدنية، كان يصرع طلبة يجتازونه حجماً و سناً، بل أنه لم يكن ليتورع عن إقحام نفسه فى معارك مع مدارس أخرى، و يومها كانت مديته الوهاجة تعرف طريقها جيدا إلى الأبدان لتختم المرارة على أسطح الجلود.

كان ابن نكتة و صاحب دعابة حاضرة جاهزة للإطلاق في أي وقت و في أي زمن لينفجر الجمع ضاحكاً، فلِمَ لا أكرهه؟؟

نعم أنا أكره "أشرف الصباحي"، فقد كان يسبقنا فى كل

شيء، فحين بدأنا نحن نتحسس الزغب الأخضر الناعم فوق شفانا العليا كان قد بدأ يحلق لحيته الخشنة رغم سنه الرابع عشر لا أكثر، حتى في بلوغ الحلم، كان أول من بلغه، مما دفعه إلى تلقيبنا بألقاب مشينة تدل على أنوثتنا و نعومتنا. لا داعي لذكر إنه أول من دخن التبغ، وحين بدأنا نحذوا حذوه، لم تردعه سنه البكر عن تدخين المخدرات.

إلاً إن الجميع كان يحبه، الجميع كان يجده ساحراً، خفيف الظل، صاحب نكتة حاضرة.

لهذا كرهته.. كرهته كثيراً

"- نبيل، أنا أسألك"

كانت هذه من زوجتي. من الجلي إنها لاحظت ضلال عقلي وسط أحراش الذكريات، لم أطلع هذه المسكينة على هذه الصفحات السرية الدقيقة تحت رمال عقلي، لم تكن تعلم شيئاً. لم تكن تعلم أى شيء. لقد نجحت فى وأد "الصباحي" في أجفأ تربة بمؤخرة عقلي، ولكنه ها هو ذا يعاود النهوض من باطن أنقاض الذكريات،

منفضاً إياها عن كتفيه العريضين.

كانت قد سلطت عيناها على الخبر الصغير بالصفحة، حيث ركزت بصري، محاولة إجتثـاث الحقيقـة وراء شـرودي، فعـاودت السؤال :

"- هل كنت تعرفه"؟

أعرفه؟

لقد بصق "الـصباحي" لعنتـه فـى عروقـي وبـات إسـتنزافها مستحيلاً.

تتبعته أينما تواجد في رقعة من أرجاء المدرسة، إستقـصيت كل الاماكن التى يتواجد فيها وسرت إليها.

كلمـا دق جـرس الفـسحة كنـت ألفـى نفـسي أجاهـد أمـواج الطلبة المزدحمة فى ردهة الطابق، محاذراً الإصـطدام بهـذا و ذاك، لأصل فى النهاية إلى فصله لمجرد أن أقف على مقربة منـه محـاولا لفت ناظره الى وجودي إلا أنه نادراً ما كان ينتبـه لـي، وإن لمحـني محدقاً فيه، كان يكتفي بتحيتي بهزة رأس مقتضبة من حيث يقف

دون أى إكتراث، فهو لم يكن يعرف إسمي حتى.

الجميع يفدون عليه من باقي الفصول، يدقون باب قصره لخدمته، و كنت حينها ألفى نفسي **طفلاً**، عاجزاً، موءوداً وسطهم.

- "نعم يا "إسراء"، أعرفه ."

وإبتلعت ريقي مكملاً :

" - لقد كان معي فى المدرسة، في ذات الصف الدراسي، ولم تصلني عنه أخباراً منذ ما ينازع العشرين عاماً.

وهنا وجدت نفسى أضيف همساً، رغماً عني في مرارة:

" - لقد أتعبني ذلك الشقي، أتعبني كثيرا.. "

" - ماذا تقول؟؟؟!!"

إلتفت إليها بعينين من زجاج لأجدها محدقة في وجهي فى دهشة حقيقية منتظرة مني إجابة. صمتت هنية ثم أدارت عينيها ثانية نحو الخبر متابعة القراءة، وهنا باغتتني بسؤال آخر:

" - وهل كان كاتباً، مفكراً، منذ صباه؟"

إرتفعت حمم الغيظ الى عقلي وكللت جل جهدي كي لا أحطم رأسها الجميل الفارغ، ها هي ذي تلك الحمقاء تنبهر بشخصه كالآخرين لمجرد قراءة هذا الخبرالسخيف بالجريدة. إنها متلهفة لمعرفة المزيد عن ذلك الوغد.

" - بل على العكس، لم يكن سوى فاسداً، مغروراً، فاشلاً، وإني لأتعجب لحال الدنيا التى جعلته مشهوراً ذات يوم".

خرجت تلك الكلمات مختنقة، متهدجة و عالية رغم كل شيء، لهذا أرى وجهها وقد عقدت حاجبيها في حيرة مغمغمة بشيء ما عن هذه الغضبة المفاجئة الغير مفهومة في الواقع، إلا إني تابعت إحتجاجي الذى تحول الى صراخ صريح الآن، وإن إصطبغ بصبغة من دموع المرارة، والغيظ:

"-فعلاً ما أعجب حال هذه الدنيا، صارت تقدم الشهرة و الصيت لأي جاهل معدوم الموهبة لمجرد إنه صاحب محسوبية أو دفع رشوة، أكاد أجزم إن هذا ما حدث مع ذلك الإنسان،.."

عندما هدأت العاصفة كنت انتفض كالورقة، أتنفس انفاساً متلاحقة عالية، أقرب للإزعاج هي راودني إحساس بأني حيوان

ضاري فرغ من إلتهام فريسته لتوه، بينما هي لا تزال تحدق في بعينين جاحظتين و فم مفغور، ولو إنه كان يتحرك محاولاً إخراج كلمات ما، ولكن الذهول قد سلسله بأغلال من فولاذ.

أخيرا" قالت:

ـــ"مـ.. ماذا بك؟ أنا لم أرك هكذا منذ..!!

إبتلعت ريقي وإن شعرت إني ابتلع حطبٌ من جهنم على حين واصلت هي:

ـــ"ما هذا الذي دهاك؟ هل... هل جننت؟"

أردفت وقد بدأت تهضم الصدمة في جوفها نوعا

ـــ"أنت... أنت تغار منه".

أغار منه؟

و من قال غير هذا؟

طبعاً كنت أغار منه، لعل هذا سر كراهيتي المميتة له، بل كان السر وراء قسمي بأن أحطمه و بتر شموخه.

إستنزفت كل غيرتي و حقدي تجاهه لإجتذاب الناس من بلاطه.

إنسبت تحت جلده و تدثرت به، وأمسيت أجوب بين غابات شخصه منقباً عن كل ما ما تيسر لي محاكاته، الواقع إني غمرت جسدي بعطره.

تكلمت مثله صانعا" صوتاً غليظاً رجولياً مثله، بل إني، صدق أو لا تصدق، بدأت أحاكيه في مشيته السريعة الواسعة. ليس هذا كل شئ، لقد وصل الأمر إلى تتبعي له أثناء إيابه إلى منزله، متأملاً كل حركة تصدر من جسده القوي.

ومع هذا لم تبتل عروقي الظمأة، يا إلهي، أتراها قوته وراء جاذبيته؟

عكفت على التردد على صالات التدريب و أضحيت من مدمني روادها، بدني يزداد صلابة، كلما تألمت اوصالي، كنت ألمحه بعين الخيال يرقبني في غيظ، سوف أنال إعجابه.

استشعرت وقوده يضخ إرادتي.

ولكن الطلبة لن ينفكوا عن ملاحقته. و ظل جدار هيبته يرتفع أكثر من ذي قبل، بل والأدهى إنه لم يلتفت لي قط .

وجعلت أتوغل إلى تربته ثانية.

بدأت أدخن، و حاكيت أسلوبه المحنك فى إشعال أصابع التبغ. كلما تسنت لي فرصة للتدخين قبالته، كنت اتعمد إبراز السيجارة بين أصابعي كي يراها. إتجه نحوي ذات يوم وسألني:

ــ "لقد صرت مدخناً "

أومأت برأسي بأن نعم، و بالرغم من الابتسامة البلهاء التي رسمتها على ثغري إمعاناً في ثقتي بنفسي، إلا إني لم استطيع التحكم في القشعريرة التي غزت جسدي، فعاود الإستنكار و إبتسامة تهكم تتلاعب على ثغره:

ــــ"ماذا حدث لك؟ لقد كنت فتى صالحاً!"

تدفق شلال الغيظ إلى رأسي بعد إذ لطمتني نبراته الساخرة الهازئة، لم أتمكن من ترك ذات الانطباع الذى تركه لدى الباقين.

يجب أن أغلبه، يجب أعتلاء بناء المدرسة مثله.

إتجهت إلى المخدرات لأرتشف من كأس الفساد الذي يعتليه

"أشرف الصباحي" وبت بين ليلة وضحاها فاسداً جديراً بالشهرة في المدرسة.

وفي ذات ليلة بينما كنت غائصاً في إحدى المجالس التى سبح فيها مسك الحشيش في جنبات الغرفة، تسائل أحدهم ممسكاً بلفافة الحشيش:

ـــ"من منكم صنع هذه؟ "

جاء صوتي بأنه أنا، فنظر للفافة بخيبة أمل، ورأيته بعينيّ المخدرتين، يعاود بأصابعه المرنة يعيد لف اللفافة بمهارة فائقة، مردفاً بعد إذ إنساب الدخان في أرجاء عقله:

- "يبدو إنك حديث التدخين للحشيش، إن اللفافة ملفوفة بسوء شديد، إن يد مبتدئ هى التي لفت هذه اللفافة"!

ثم تجشأ في صمت و إستأنف حديثه:

ـــ"لم أر من هو أكثر براعة من "أشرف الصباحى" فى صناعة لفافات الحشيش، إنه محنك بحق".

إختنقت ومضة الحشيش في دمي، فجمعت شتاتي مخاطباً الجمع الجالس بالإذن لأني على ميعاد مع بعض الأقارب.

إن "الصباحي" لا يحادث الفتيات بتاتاً!

هل يخجلهن؟ لا اعتقد، إن طباع شخصه تأبى عليه هذا..
لا يهم، لتكونن هذه نقطة في صالحي.

لبقاً جداً كنت أي أنا في حديثي لهن، دائماً ما كنت أشعر إني تدرجت درجة أعلى منه كلما رآني برفقة إحداهن، ومع ذلك، كان فؤادي يجزع كلما تلاقت أعيننا مما كان يسبب إختناقاً في إسترسال حديثي لا سيما إذا ما مر بى عن كثب و تلامست أكتافنا أو إحتك ذراعي بذراعه في أثناء مروره.

ـــ"إنه وسيم جداً"

كانت هذه من إحداهن. قالتها وقد سهمت عيناها بعيداً راصدة خطواته الواسعة الواثقة و كان حديثي قد ضل طريقه تماماً إلى أذنيها، أو لعلها أذنيها هي التي أوصدت ذاتياً لدى إبصاره.

أردفت:

- "ولكنه يخجل الفتيات"

- "هذا يعود إلى غروره و شدة إعتداده بنفسه"

أكدت صديقتها الواقفة بالجوار:

ــــ"مغرور إلى أبعد الحدود، في إمتحان الرياضة، تركته ينقل مني الإمتحان كاملاً، وبعد الإمتحان، بادرته ببضع كلمات، فإذا به يجيب بإقتضاب شديد ويرحل دون أن يترك لي الفرصة لمجرد الإجابة".

ــــ"ولكنه شديد الفحولة، ويمتلك جسداً قوياً."

وتطرق الحديث في النهاية إلى جاذبيته الجنسية، و الواقع ان الحوار كان كفيلاً بدفع "جيمس دين" للإنتحار إثر الغيرة.

خفق قلبي و إستقر في جوفي، لم أكن قد لا حظت وسامته او فحولته قبل ذلك الحين. بل لقد إكتشفت بعد ذلك إن الفتى كان موضع حديث الفتيات اللاتي يحلمن ليلا أن تملأ عضلاته الفراغ المجاور بالفراش.

....

القاهرة 1987

تعتلي قمة الجبل الأخضر، فاتحاً ذراعيك كالنسر المحلق فى سماء الكون، مالئاً مسامك بالنسيم الوردي زكي الرائحة، محتوياً الكون بأسره في ضلوعك، حسك مرهف كصفحة المياه، ما أن

يلقـي أحـدهم بحجـرة حتـى تتـسع دوامـات القهـر و الحـزن علـى سطحك، عنفوانك يزأر في عروقـك لينفجـر في أتعـس العبـاد حظـاً، أناملك تتحسس ستائر الحياة الحريرية في حب قـد يـصل الى زجـك إليها خلف قضبان قلبك.

لقد توقفن الفتيات عن كونهن زميلات، و أجـسادهن باتـت تحكي مئات الروايات.

تمتطي الشوارع كفارس فوق جواده..

التبغ بات عشيقتك..

تروس عقلك أصابها العطب، قلبك يحرق وقوده إجهاد

لا سبيل لك، الطاقة تفعمك حتى الثمالة..

....

مشاكلي إزدادت بالمدرسة ، العطن بات يغلف سيرتي لـدى كل لسان، ما ان يدلف المدرس الى الفصل حتى أبيـت أتـسنى لحظـة طـردب.. أحطـت نفـسي بحفنـة مـن الأوغـاد علـى سـبيل "تنظـيم عصابي" لإرهاب الآخرين.

كان هو يقبع في ركن الفصل الأيمن كديدنه، ولكن هيئتـه لم تكن تمت بصلة للفتى الذى أرق منامي وأطال علـي الليـالي. صحيح أن بنيانــه المـتين لم يخنـه بعـد، إلا أن نظرتــه المليئــة بالوعيـد و التحدي أضحت مليئة بالمعرفة و العلم.. شيء مـا إعـتراه، فـبغض النظر عن العدسات المرتكزة أعلـى أنفـه الحـاد،إلا أن شـئ مـا طـرأ عليه، أضـحى صوته رزينـاً بطيئـاً، محاطـاً بـشريط مـن الهيبـة و الإحترام. القلم ما ينفك عن العصف بأمطار من الكلمات المبعثرة مـن حين لآخر أثناء الشرح. المعلم نفسه بات ينسى وجود بـاقي الطلبـة بالفصل مـسلطاً عينيـه علـى ركـن الفـصل، حيـث يجلـس، موجهـا الحديث له وحده.

كنت كلما أطلت لساني على إحدى المعلمين أو بعثرت شتات الشرح، كان يحدجني بنظرة إشمئزاز تعصف بكياني، نظرة كفيلـة بإسقاطي صريعاً على الكرسي بينما عرق الخجل يغمرني ويسيل من أعلى جبيني.

وذات يوم، بلغ الـسيل الزبـى، فـألقى بـالقلم جانبـاً وصـاح بجموع الفصل:

ـــ"يا جماعة،هذا لا ينفع! أنا لاأفهم شيئاً من الشرح"!

دوت كلماتــه كهـزيم الرعـد، وتواثبـت الأفئـدة في جــزع، وإنتشر غاز الصمت في صباحات الفصل.

لن أنال رضاه أبداً، أبـداً. و الطامـة الكـبرى هـي أنـه إزداد هيبة، أقسم على ذلك.

....

في الفسحة كان رابـضاً كزهـرة آخـذة في التفـتح، عـدد مـن الفتية و الفتيات إلتف حوله متشرباً ضياء حديثه بجـل حواسـهم، وسهمت أعينهم، و توارت قلوبهم خلف مخـارج كلماتـه الأخـاذة. كان يحرك ذراعيه في إشارات تساعد على توصيل فكره إلى الجمهور الجاثي على الأرض جواره، وكان يضع كتاباً مفتوحاً بجواره، واضح أنه كان السبب في إفتتاح "الندوة الثقافية". كان يحكى عـن "بيـدبا" و كتابه "كليلة و دمنه" وعن الأثر الذي تركه على مر الحضارات.

إقتربت من الجمع الجالس، وتظـاهرت بالإنـشغال بـالنظر لأظفاري. كانت الغـيرة تجتـث قلـبي مـن جـذوره، خاصـة بعـد أن

لمحت "أوغادي" بين الحضور، وقد تدلت فكوكهم وضاقت أعينهم إزاء متابعة حديث الفتى، و عندما جثم شيطان الحقد على صدري إنحنيت على أحدهم هامساً:

ـــ"هيا ننصرف يا فادى"

ـــ"إنتظر برهة! "

قالها بسرعة وأدار وجهه من جديد صوب "الخطيب العظيم"، فجذبته من ذراعه بعنف، فإذا به يعصي أوامرى، للمرة الأولى، مخلصاً ذراعه من قبضتي صائحاً:

- "يا أخى قلت لك أصبر!"

وشعرت بغصة الهزيمة في حلقي وآثرت التواري عن الانظار.

إنساب الماء على جسدي محاولاً غسل الهموم عن كاهلي، و مسح الذكريات المتطفلة عن عقلي، حيث لا مس أرضية حوض الإستحمام ليضج مواصلاً مسيرته إلى فتحة البالوعة مبتلعة إياه. إنتهيت من الإستحمام، ووقفت أجفف جسدي. رمقت وجهي في

المرآة..

لا بداية لي... لا مفر من القضاء على "الصباحي".

"الصباحي" الذي إقتحم بيتي و أسرتي..

"الصباحي" الذي عاد بعد خمس و عشرون عاماً..

"الصباحي" الذي زلزل بنيان مستقبلي منذ صغري.

"الصباحي" الذي طالما تواريت في حرملته

جسدي يرتجف غيظاً، حلقي يحترق كصحراء الخليج. غيرتي تتكثف قبالتي على المرآة.

لقد زال ستار التعقل وفتق الجرح القديم. جاء وقت الجنون ولا مفر منه.

كان الليل قد حجب السماء بغطاء تابوته الأسود الثقيل حين تواريت خلف شجرة عجوز منحنية الجذع، قابعة على الرصيف المقابل لمقر الحزب.

كانت أقدام المدعوين من الشباب قد بدأت تطئ خارج

البوابة، اشعلت سيجارة ونفثت دخانها في عصبية.

مهما طال الزمن، لن أتزحزح من هذه الرقعة من الأرض، فهى الحلبة الفاصلة بيننا.

كان إسمه مكتوباً بخط جميل منمق على فرخ ورقي عملاق علق في فناء المدخل، ترى كيف صار وضعه اليوم؟

هل تفوق عليَّ في الزواج؟ هل تزوج من طبيبة أو مديرة علاقات عامة، أم هى مذيعة تليفزيونية جذابة ومحنكة؟ لا بد إنها تفوق "إسراء" جمالاً و ذكاءاً و...

هل تفوق عليَّ في علاقاته الإجتماعية؟ لابد إن كبار الصحفيين و الإعلاميين يسعون خلفه، بينما أنا مدفون في جبهة عالمي الخاص.

لا وقت للتفكير الآن..

ها هوذا يخطو خارج البوابة.

لقد تبدل كثيراً. لقد خطى الزمن بضعة خطوات صوب رأسه، مخلفاً وراءه جبهة شاهقة لامعة، وخانه جسده المشوق

الرشيق وإكتسب بضعة كيلو جرامات لا شك فيها إلا أنه، كما كان لي أن أتوقع، إزدادت طلعته هيبة و قوة و صلابة. كان يرتدي معطفاً أسوداً فخيماً مما أثار إزدرائي حيال معطفي الباهظ، الإيطالي المنشأ، كالعادة.. معطفه أفخم وأغلى من معطفي!

خفق الشباب حوله كالطيور، و البسمات ترتسم على ثغورهم، وفي غضون ثوان، راحت الدفاتر و الأوراق تتهاوى بين الأيدى الشابة لتزدان بإمضاءاته و إهداءاته في حين إنتفش هو كالديك وإستل قلمه في تفاخر وجعل يعصف بأوراق الحضور.

صفعني المشهد على وجهي ،قامته الشامخة المنتصبة بين جموع الطيور تكاد تهتف بى: "ايها الطُفيل عد إلى جحرك، لطالما كنت وسأظل أنا الأفضل".

هنا أدار وجهه قبالتي ببطء و تفحصني من أعلى قامتي إلى أسفل قدماي و بصق على الأرض و أعقبها بابتسامة شامتة.

إندفعت كالطير الجارح مطوحاً جسدا أو اثنين عن سبيلي بينما توالت الصيحات متداخلة مبهمة إلى مسامعي:

– من هذا..؟!

- ما هذا..؟؟!!!

- مجنون هو..؟!!

- إنتبه يا دكتور "أشرف"...

(دكتور..؟!.. هل حضَّر دراسات ما، وحصل على الدكتوراة؟!)

حتى و انا أطرحكم أرضاً تحاولون إنقاذه؟! سوف أريق كرامته قبالتكم.. أغمدت يدي فى معطفي منتزعاً السكين الرابض في أغوار ملبسي و رفعته صوب الفضاء فقط لأهوي به حاصداً روحه البغيضة إلاَّ أن الرجل، على الرغم من بدانته تفاداني برشاقة، لامراء فيها فقط لأهوي به في العدم في حين قبض هو على رسغي و تمكن من قلبي رأساً على عقب، فعلها بحنكة و مهارة ينمان عن باع طويل في قتال الشوارع منذ الصبا، حيث إنكفأت على ظهري لأرمق الوجوه المذهولة المفغورة الأفواه الملتفة حولنا. نهضت بسرعة من على الأرض بعد أن فقدت سلاحي إثر المفاجأة، وركضت نحوه منتوياً إنتزاع حنجرته بأنيابي، ففوجئت به متأهباً في وضع قتالي وحين فارقتنا بضعة خطوات، إنبطح أرضاً على جانبه الأيسر

ممددا" ساقه اليمنى معترضة طريقي، فقط لأنكفئ على وجهي شاعراً بأنصال الأسفلت الحارة تعصف بجبهتي و أنفي، و من بين دموع المهانة و لهيب الإصابة، لمحت أحذية المشاهدين تتقدم نحوي ببطء وحذر.

أدرت جذعي من على الارض والفيت نفسي وحيداً.. وحيداً و صغيراً في خضم هذا العالم الكبير، ضعيفاً كصفحة ورقية في قلب زوبعة...

ترقرق الدمع في مقلتيَّ، ورحت أرمقه بإستعطاف حقيقي وسط الحشد ورويداً رويداً.. بدأت أبكي.. أبكى كطفل تيتم لتوه.

كان هو واقفاً فوقي و الجمع المحيط لم يزل يتسائل:

—- "مجنون هو..؟"

—"كان يبتغي قتل الدكتور!"

—"فليطلب أحدكم البوليس!"

همست بصوت مشروخ:

—" لماذا بصقت عليَّ؟"

قطب جبينه في حيرة ومال برأسه جانباً كناية عن الدهشة

متساءلاً:

ــــ"ماذا؟ ماذا تقول؟"

جمعت أشلاء صوتي مواصلاً السؤال:

ــــ"انت نظرت لي بإحتقار و بصقت أرضاً.."

وفور إنتهائي من جملتي، تعالى بكائي من جديد حتى بللت دموعي ملابسي على حين همس هو:

- "أنا نظرت لك بإحتقار وبصقت؟ من أنت؟ هل أعرفك؟"

- "أنا نبيل... نبيل بيومي... الثانوية التجريبية... ألا تتذكرني؟"

ــــ"نبيل بيومي؟! أنا لم أعرف هذا الإسم بتاتاً، أنا لا أعرفك يا رجل!!"

تحشرجت كلماتي هاتفاً:

ــ- أنت لا تذكرني أبداً.. لا تذكرني أبداً.. أنت عذبتني كثيراً جداً... و...

وإختنقت كلماتي في حلقي ممتزجة بدموع الخجل و دموع الهزيمة..

وإختنقت الدنيا كلها معتصرة إياي في عباءتها الكالحة

لقد فاز الرجل بالجولة الأخيرة...

وهزمني في صباي بشخصه و غلبني في كبري بنجاحه..

واليوم طرحني أرضاً بيديه..

لقد فاز الرجل ثانية...

جريدة الجمهورية الصفحة الاولى

عنوان خبر: (مختل يهاجم الصحفي الدكتور "أشرف الصباحى" و يحاول قتله أثناء خروجه من إحدى ندواته!!)



نفض رماد سيجارته كي تسقط صريعة باردة على أنسجة البساط الإيرانيَ الباهظ القابع أسفل قدميه ولكنه لم يؤت الأمر أية أهمية، وما الضرر؟ لقد عاش هذا البساط زمن مديد وشبع من رحيق الحياة ولذتها، تماماً كملك عاش متخماً بنعيم الحياة راضياً عن ملكه وسلطانه والآن آن الأوان كي تسقط قلعته ويتهشم تاجه إلى مئات الفتات وتنتزع أنيابه وتبتر ذراعه. ملكاً بلا شعب، هذا ما شعره تجاه هذا البساط الذليل الراقد جوار قدميه. كان قيماً فيما

مضي، أما اليوم فهو قطعة من القماش لا أكثر.

كانت عيناه بالرغم من أعوامها الأربعة وسبعون لم تنفك حادة كحافة الشفرة، كفيلة بإنقضاض جدار من القرميد، ظهره ممشوق مشدود كسد اسوان وحواسه تجوب الغرفة كالنحلة الساعية لرزقها تبحث عن مخلوق حي تأمره كي ينفذ الأوامر في الحال قبل أن يرتد له طرف.

كان كديدن ضباط الحربية المتقاعدين يستصعب عليه الإذعان لنواميس الكون الصارمة. قد تشرق الشمس غرباً، قد ينشق القمر ثانية، قد تنبت الصحراء ياسميناً، ولكنه كان وسيظل من العسكريين القدامى الذين يتنشقون طين الوطن وأدمت أناملهم إثر السلاح الذى حملوه من أجل تحريره من كيد الإغتصاب.

ضغط زر التلفاز فتفجرت شاشته الحبيسة في إطار التلفاز ليشع في صباحات الغرفة عارضاً ما بمخلته من أخبار.

حدقت بعينيه المذيعة الأنيقة المحنكة الحبيسة في شاشة العرض بحماس وهتفت:

- وبالرغم من القصف الوحشي المنهال على مدينة البصرة

جنوب العراق إلا إن المقاومة الشعبية أظهرت جلداً وإستبسالاً شديدين بميناء أم القصر في حين أعلن الجنرال أركان حرب الأمريكي (فنسنت بروكس) في تصريح له خلال مؤتمر صحفي بأن سقوط حكومة "البعث" المركزية بات أمراً حتمياً وأن الأمر بات مجرد وقت لا أكثر. وعلى صعيد آخر، أعلن وزير الإعلام العراقي (محمد سعيد الصحاف) بأن القوات العراقية قد قامت بتطويق ميليشيات المارينز الأمريكية داخل مطار بغداد وأنها باتت معزولة عن..

أدار القناة كي تحل محل المذيعة المتحمسة، راقصة شبه عارية، تتلوى كبحر الإسكندرية، أدار القناة ليحل محلها شاب منكوش الشعر، كث الحاجبين، يفتح قميصه من بقغة الصدر ليبرز غابة سوداء من الشعر، كان يعتلي المسرح ممسكاً بمكبر الصوت فقط ليستمع إلى أردأ الأصوات على وجه البسيطة، باستثناء نفير الحمير، كان يغني بينما مئات البنات تصرخ وتبكي أسفل المسرح. إلتوت أمعاءه لدى إبصاره المشهد فأدار القناة للمرة الثالثة فقط ليدرك نشرة الأخبار المحلية.

استمع لأزيز المذيع الرتيب الممل:

- وقد قام السيد الرئيس بجولة تفقد خلالها منتجات القوات المسلحة من الحلوى والعجائن المخبوزة وأشاد سيادته بجودة المنتجات وبراعة شباب القوات المسلحة في...

أغلق الشاشة، أظلم المحيط وعم السكون إلا إنه مد يده إلى المائدة المجاورة وسحب منديلاً وألصقه بعينيه ليحبس الدموع قبيل إنفجارها.

نهض في تثاقل متجهاً إلى غرفته، إلا إنه ضغط مكابحه ليتوقف في الردهة متسلقاً الحائط بكلتا مقلتيه لتستقر في تهيب على صورة معلقة تكاد تنطق شموخاً وكبرياءاً، تكاد تستشعر لهيب طاقتها في قلب الردهة. كانت الصورة المحاطة بإطار نحاسي، أخمد الزمن بريقه ولمعانه، لشاب في الزى العسكرى، تتقد عيناه حماساً وفخراً، أشعلت الشموخ والكبرياء في قسمات وجهه الجسور المنحوت بأزميل الكرامة.

إستأنف سبيله إلى غرفته وفتح خزانة ثيابه وجال بعينيه بين الكسوة المعلقة حتى إستقرت على بذلة مغلفة بكيس بلاستيكي فضفاض. إنتزعها برفق من بين أخواتها ورفعها قبالة عينيه لبضعة ثوان ثم كمن حسم أمره أخيراً، أزاح الغطاء الفضفاض في سرعة

ولهفة وألقى به أرضاً دون أدنى إلتفاته إلى سحابة التراب التي تفجرت في الحجرة وأشعلت وقود السعال في رئتيه العجوزتين ومع ذلك لم يطرف له جفن عن البذلة العسكرية البالية المجربة التي إستقرت بين يديه. كان الزمن قد رتق أكثر مواضعها ببصمته القاسية ورائحة القدم والبلاء قد عطنتا كيانها ومع ذلك، فقد صعقت الرائحة عقله بوميض الذكريات الحانية والشوق إلى الماضي الأسير في وجدانه والحبيس في آبار قلبه الغافي.

رفع البذلة من مشجبها عالياً وإلتمعت عيناه و وجهه بغلالة شفيفة من الشجن، إلتماعة أذابت مقلتيه وسط دموع الصمت المكبوت لعقود وعقود من الزمن محاولاً الكشف عن منفذ للإنفجار..

وببطء بدأ في نزع الروب الثقيل السميك المحيط بجسده الممتلئ وألقاه أرضاً. صعق البرد نخاعه لبضع لحظات ثم سرعان ما خبت إنتفاضته. إتجهت أصابعه تعبث بأزرار المنامة لتحلها في تؤدة وهوادة بينما عيناه مسلطة على الأرض الخشبية فقط لتسكن على السطح البارد.

* * *

كان أول ما سيخالج نفس من يبصر هيئته هو الضحك. كان قد فعل المستحيل ليتمكن من حشر جسده الممتلئ بين أحضان البذلة العسكرية التي كان يصغى لأنينها وتوسلاتها ليحررها من سجنها.

وضع القلنسوة العسكرية فوق رأسه ووقف طويلاً منتفخاً كالديك المزهو نافشاً صدره في شمم وكبرياء ممرراً راحة يده على البذلة في إشتياق حقيقي للماضى البعيد كالنجوم.

- السلام عليكم يا عم سعد!

- وعليكم السلام و..

بتر عم سعد البقال المسن عبارته لدى إبصار عينيه الضامرتين لهيئة محدثه الشاذة. مر بجوار ورشة (حسن) العجلاتي صائحاً بلهجته العسكرية التي لم يفلح الزمن فى تخليصه منها:

- صباح الخير يا (حسن)..

- صباح الخير يا سيادة الـ...

تسمرت عينا حسن وتوقفت يداه عن العبث بجنزير العجلة

وفغر فاه لدى رؤيته إياه معلباً داخل زيه العسكرى الذي بدأ أخيراً يستسلم للتفتق عند أكثر من موضع.

رمقه المارة في حيرة. بعض الأطفال لم يتورعوا عن الإشارة إلى كرشه الذي راح يجاهد لشق طريق الحرية خارج القميص العسكرى المشدود كالقوس. أحد الأطفال راح يهتف لأمه: أنظري يا أمي إلى ملابس هذا الرجل، لما تبدو ضيقة عليه على هذا النحو؟

ردت أمه في شفقة: ربنا يلطف بنا يا بني.

أطلت الناس برؤوسهم من نوافذ السيارات حتى كادت تسقط أرضاً و المترجلين توقفوا عن السير وأداروا أعناقهم حتى إلتوت حول محورها وهالات الدهشة والتعجب ترفرف حول رؤوسهم على حين واصل هو حثيثه نحو غايته قاصداً مشتل الزهور القابع ناحية الرصيف المقابل.

* * *

دفع الباب الخشبى ودلف إلى الداخل بخطوات واثقة هادئة متأملاً المتجر الزجاجي الهادئ كسطح ترعة راكدة. آلمه كثيراً إنفجار ألوان الزهور الفاقع فى عينيه المنهكتين اللاتى لم تعودا تميزان سوى

اللونين الأبيض والأسود. لم يعبأ كثيراً بعيني البائع اللاتي شارفتا على السقوط من محجريهما لتستقر جوار قدميه أرضاً. بل أن قشعريرة ضربت قمة رأسه وإنتشرت كالسرطان إلى باقي أعضاء جسده. حاول أن يبدد ذلك الشعور بأن يسلك سلوكاً عدوانياً غليظاً تجاه زائره الممسوخ، فسأله بغلظة:

- أمرك يا سيد!

أدار رأسه نحوه ببطء مشحون بالإمتعاض والاشمئزاز وأغمد خناجر نظراته في عيني محدثه وتمتم بصوت خفيض منذراً بالويل:

-إسمي ليس "سيد"، أنا العميد بلواء المهندسين "رضا عبدالغفار"، أحد كبار قادة العبور، هل فهمت أيها.. أيها "السيد"..!!

ابتلع الرجل علقم مخاوفه بصعوبة وتوقف عن النطق وإكتفى بمراقبة "العميد" الذى عاد يجول بنظره بين الزهور متمتماً بصوت خفيض كلما مد يده نحو زهرة ليتحسسها في رفق:

- روز.. عصفور الجنة..جلادييس...عباد شمس...

ثم تيقظ فجأة من عالم الزهور بألوانه الساطعة وأسماءه عائداً لطبيعته العسكرية مهاتفاً البائع بلغته الآمرة:

- سآخذ باقة من الجلاديس، حوالي خمس أو ست زهرات!

بينما كان البائع ينتزع الزهور بيد مهزوزة مرتجفة غمغم هو:

- أريد الباقة أن تكون من قماش فاخر باهظ.

إنتهى البائع من لف الباقة وناوله إياها بينما خلجات الخوف ما زالت تزلزل يده، دس العميد ورقة من فئة الـ 100 جنيه وأخرى مثلها، وبينما كان يطل نحو الخزانة منتوياً إعطاءه باقي مستحقه، فوجئ به يستدير بآلية قاصداً مدخل المتجر.

صاح به:

- لحظة، باقي نقودك أيها "السيد.." أ..أقصد يا سيادة "العميد"، نقودك!

لم يبد كأنه سمعه، وواصل مسيرته ولدى خروجه، صاح

بلهجته العسكرية لإحدى سيارات الأجرة:

- تاكسي!!

توقفت سيارة الأجرة وفتح بابها حاشراً جسده جوار السائق آمراً كعادته جميع الخلق:

منشية البكري!

تلقى السائق الأمر وإنطلق من فوره إلى مقصده.

* * *

مر زمن من الدقائق بينما هو لا يزال واقفاً منتصباً قبالة الضريح، قبل باقة الزهور بلطف ثم وضعها على قاعدة القبر برفق.

كان مطرق الرأس في خجل. معالم وجهه تتقلص وتنكمش حتى باتت قطعة من القماش المجعد. كانت شفتاه تختلج بسرعة أشبه برفرفة الذباب. جفونه تعتصر عينيه فى غل مسيلة أنهاراً من العصارة الدمعية فقط لتتجمد فوق أخاديد وجهه الهرم العجوز كصخور سانت كاترين. كان يجاهد كي يتكلم، بل ويكافح ليشكل لسانه حروفاً تخرج للدنيا على هيئة كلمات مألوفة.

أخيراً قال بصوت خنقته المرارة بحبلها الغليظ:

- سيدي الرئيس، سامحنى.. سامحني.. ما كان يجب.. ما كان يجب.. وإنتحب بصوت مسموع أسال المخاط من أنفه.

واصل مخاطبة الضريح:

- ما كان يجب أن تصل الأمور إلى هذا الحد. ما كان أن يجب أن تلفحنا شمس الإهانة إلى هذا الحد، ولكن ما باليد حيلة.. ما باليد حيلة..

جثا على ركبتيه وغلبه نحيبه ثانية وواصل:

- ما باليد حيلة يا سيدي الرئيس. ليتك تعود، ما اشق الحياة بدونك، ما أشقها بدونك، ما أشقها يا سيدي!

وبهدوء وضع يده داخل جيب سترته مفتشاً عن شيء ما، حتى أخرج صورة فوتوغرافية ما وأطبق علهيا بقوة.

* * *

ودوى صوت الطلقة كهزيم الرعد. أيقظ الصوت سكان مصر جميعاً من سباته العميق الذى استمر عقوداً.

أقلقهم الدوي كمن كان نائماً القيلولة أو كجسد مزق كفنه

وأزاح غطاء قبره ملبياً نداء يوم الدينونة. حقاً لم يحدث أن إستيقظ الشعب بأسره داخل زنزانته الأزلية منذ عقود حتى إنطلقت هذه الرصاصة تشق سماء منشية البكري كى تبلغ الناس برسالتها المصيرية..

* * *

قصاصة من جريدة (...)، صفحة الحوادث:

ينتحر جوار قبر الرئيس الراحل

إستيقظ سكان منشية البكري أمس على صوت إطلاق رصاص من داخل ضريح الرئيس الراحل جمال عبدالناصر وعندما هرعوا إلى مصدر الصوت، عثروا على العميد (رضا عبدالغفار) ملقى على الأرض مضرجاً في بحر من الدماء وقد قام بتفجير رأسه بواسطة مسدس عثر عليه فى يده اليمنى. كما عثر على صورة في اليد الأخرى للفقيد تمثل مجموعة من الضباط الشباب من بينهم الفقيد وقد إلتفوا جميعاً حول الرئيس الراحل (جمال عبدالناصر)، وإنتقل إلى مكان الحادث كل من اللواء...



لم تسعفه الذكريات متى أبصرت حدقتاه الطفلة هذه الشجرة للمرة الأولى. كلما حاول جاهداً إجترار الذكرى الأولى التي تم فيها اللقاء بينهما تاه لبه في طيات بستان الذكريات الطفولية المعتمة. هي كانت دوماً هناك، كالقدر تقف منتصبة مختالة بشدة عودها على ناصية شارع قصر النيل المتفرع من ميدان التحرير. مر بها يومياً أثناء رواحه وإيابه من مدرسته وقاصدها عن كثب ملياً

عيناه بجزعها المفتول الصلب. كلما اقترب التقفت عيناه آلاف التعاريج والحفريات التي اصطخبت متداخلة على سطحها، وكان كلما أطال النظر، كلما رسمت فرشاة عقله مئات وآلاف الآيات والصور التي لم تبصرها عين سواه وبالرغم من حداثة عهده بالحياة ورخاوة عقله، إلا أنه تمكن من حياكة نسيج عشرات الحكايات والتخيلات عن الجان الذين يقطنون جوف الشجرة وعن البشر الذين انسلوا إلى أغوار الشجرة من منفذها السري وهبطوا الدرجات المؤدية إلى عالم آخر محلى بالكنوز وإكتظ بالجان والحوريات ذوات الأجنحة الزاهية ألوانها.

عشقها وهفا إليها وأضحى المرور بها يومياً ناموساً من نواميس حياته، فأما الحكايات فكانت تتدفق متغلغلة في أوردته كل مدى مسكرة إياه لذة خمرها وكلما عصف الزمن وإتخذ بضعة خطوات للأمام، كلما التهبت جذوة صداقته وعلاقته بها، فها هو ذا عمره يحيك نسيج أعوامه الإثنى عشر وما إنفك عن إغراق ناظريه بالتوائاتها وإنحناءاتها وما انفك عقله الوليد عن تمثيل الجان والحوريات والإنس المتوغلون بين أخاديدها وحفرياتها، فإذا كانت الطهيرة، كان يلوذ

بالعودة من المدرسة فقط ليمر بها ملقياً تحية المساء متمنياً لهـا أمـسية هنيئة.

نفخ الزمن عجلة عمره فقط لتدور بضعة سنون مستقرة علـى ربيعه السابع عشر.

وقد أضحى ليثاً حـار الـدماء، وافـر المتانـة، رخـو المـشاعر ومرهفها، ما زال يمر بها فقط لينال جرعته من رحيـق خـدرها إلى قلبه الظمئ إلى حنينها. لم تزل تقطـن ذات النقطـة متمطيـة ناصـية قصر النيل وميدان التحرير، منتشية برونقها وسحرها القديم، فأما بالرغم من رشد سنه، كان ما يـزال علـى يقـين مـن إكتنـاف الجـان والإنس قصبتها وباحة قعرها والحوريات ذوات الأجنحـة يطوفـون حولهم بالأكواب والأباريق. كان علـى يقـين مـن هـذا، ويـذكر ذات ظهيرة أنه بينما كان في سبيله كديدنه إلى بيته، مر بها فقط ليبـصر أحدهم وقد وقف قبالتهـا ملتـصقاً بهـا وقـد ضـم كلتـا يديـه أسـفله معالجـاً زر بنطالـه بلهفـة متـشوقاً لإفـراغ تعبـه، فـإذا بـه ينـدفع كالرصاصة نحوه فقط ليدفعـه بكـل مـا أوتـي مـن قـوة ليتكـوم علـى الأرض وقد ارتسمت أعتى علامات البلاهة والتعجب على سـحنته، كـان هـذا قبـل أن يـشيح هـو بيـده بعيـداً صـارخاً كهـزيم الرعـد:

بعيدا..! بعيداً..! هيا من هنا..!!! نظر الرجل إلى ساقيه المبللتين لربع ثانية، ثم قرر أن يلم شتاته وتزرير بنطاله المفتوح فالنهوض فالركض بعيداً.

تنفس هو الصعداء وهبط الدم ثانية إلى أوردته، أدبر إلى طريقه مرة أخرى متبسماً رغماً عنه.

أقبل اليوم الذي طالما أرق سباته

في صبيحة ما، بينما كان يسلك دربه للجامعة، إستوقفه مشهد ما. شئ ما لم يكن على ما يرام بخليلة طفولته.

تقدم نحوها في وجل وأوغل النظر فيها..

لقد شاخت وهرمت بحق.. إزدادت الأخاديد والتجاعيد تعقيداً، جلدها بات متقشفاً جافاً خشناً، قامتها بدأت تميل وتنحني كما لو كانت تنحني له تأدباً لدى حضوره، أوراقها تساقطت في أكثر من موضع كمن إفترست رأسها الثعلبة. ما بقي على فوديها من ورق قد تلون بالأصفر الباهت المكفهر.

مد يده نحوها وتحسسها سطحها.

ترغرغ الدمع في مقلتيه وهو يتطلع إليها في إكبار وحب بينما كان يستمع إلى صليل أجراس الذكريات في أعماقه.

لكم كانت الوشائج بينهما وثيقة متغلغلة في أعماق تربة مشاعرهما. لكم من لوحات إرتسمت في أعماقهما، لكم من أشعار قُرضت في جوفهما. لقد أضحت حيواتهما على ذات الزورق، يبحر بهما لذات المقصد والقدر. هبوطه من على متنه تعني لها الضلال والتيه وغرقها تعني غرقه وإبتلاع البحر لكيانه.

طبع على سطحها قبلة حانية وربت عليها في رفق كما يفعل الفارس بمهرته، جمع شتاته واستأنف رحلته الأبدية للعمل.

ولكنه لم ينسى أن يسقيها ماءاً أثناء إيابه من عمله وأقدم على هذا العمل لمدة سنون وعقود دون إبطاء.

° ° °

الثامنة والستون

ساقاه لم تزل تقتاداه تلقائياً سالكة به ذات السبيل الذي طالما إقتطعه لدهر من الزمن. ذات المحال يمر بها، ذات الشوارع، ذات

الأرصفة، ذات الأرض، ذات المجارير التي خطى فوقها لعقود وعقود. ذات المزيج للرائحة المنبعثة من ورشة السيارات المختلطة برائحة الفول المختلطة برائحة اللحم لدى الجزار، ذات المزيج الذي تهيجت له رئتاه في طفولته من ثم آلفها في شبابه و عشقها في كهولته.

تقدم هو نحو ناصية قصر النيل.

كانت لم تزل هناك، جوهرة مكنونة في بيتها.

لقد اصطبغت بقسوة الزمن وجبروته.

حتى هي لم يترفق بها قاضي الزمن الصارم في تنفيذ أحكامه.

تقدم نحوها ثم أنه أخرج من مخلته زجاجة من الطراز الذي يتسع لتراً وأفرغ محتواها من الماء في تربتها الجافة وبرضا، شهد طينها يبتلع الماء موغلاً إياه إلى أوردته شاكراً.

إستدار وتابع سبيله.

توفى هو في الثامن من فبراير الساعة الثانية عشر ظهراً في العام 1997 كان قد جاوز هو السبعون ربيعاً.

سلك دربه الأزلي كديدنة قاصداً غايته.

هنا استوقفه كابوس.

كان رجلان بدينان كأفيال يمسكان بمناشير كهربائية بينما رافقهما مهندساً شاباً ممسكاً برزمة من الأوراق راح يخط عليها بضعة خطوط. رجلاً في بذلة كحلية، عريض المنكبين عقد كفيه خلفه. ثمة سيارة نصف نقل مضجعة على مقربة منهم.

إقترب منهم وبلهجة مستنكرة لما يحدث، بدأ حديثه:

– السلام عليكم

– وعليكم السلام.

– من أنتم، ماذا تبتغون منها؟

– منها..؟؟!!

– هي..

قالها مشيراً إليها.

نظر الرجال الأربعة لبعضهم والحيرة تملأهم.

– وما شأنك أنت بها يا أبتي؟

– بل أنه جل شأني أيها الشاب.

أشاح بعصاه في وجوههم منذراً:

- والآن خبروني عما تفعلون هنا؟

صمت الرجال وهلة قبل أن يرد المهندس الشاب:

- نحن من الحي، صدر لنا أوامر بإقتطاع الجزء العلوي من جزعها ثم أنه أشار نحو إحدى النوافذ بقلمه شارحاً المزيد:

- إنها تعيق الرؤية لدى السكان.

ثم إنه استدار إليهم متابعاً إصدار تعاليمه كأن الأمر لم يكن.

هنا تقدم هو بخطى واسعة للأمام مزيحاً هذا وذاك عن طريقه وحال هو بين الرجل البدين والشجرة صارخاً:

- سيكون عليكم إقتطاعي أولاً.

نظر الرجال لبعضهم البعض وتمتم أحدهم بأن اليوم بدا أسوداً منذ الصبيحة، إلا أن المهندس الشاب إقترب منه ومد يده لتستقر على كتفه مردفاً:

- أبتي، أنت لا تبدو على ما يرام، هلم، تعالى إلي..

بتر عبارته إثر هول ما حدث، فقد تلقت يده ضربة مهينة من محدثه جعلته يسحب يده فاغراً فاه من فرط الذهول وإذا بمحدثه يزداد تحدياً وعدوانية أثناء تأكيده:

- إبعد يدك القذرة عني. أنا لن أتزحزح من هذه الرقعة.

تصادمت الإرادتان لبضع ثوان، إلا أن الرجل أذعن في النهاية مجابهاً حاشيته المحيطة به مردفاً ببرود:

- فلنذهب الآن أيها السادة.

- تتبعه الآخرون وهم يرمقون غريمهم ونيران سقر تتراقص في مقلاتهم.

راقبهم هو حتى ابتعدوا واستقلوا سيارتهم النصف نقل العتيقة..

إسترد رباطة جأشه ثم واصل مسيرته إلى المحطة.

على أن الطامة الكبرى كانت أثناء إيابه من أكل قوته.

لم تكن هناك هذه المرة..

لأول مرة منذ أربعة وأربعين عاماً لم تكن بإنتظاره.

كانت أطرافها السفلية هي جل ما تبقى من كيانها العجوز.

كانت تنزف دماً ودمعاً ولكنها توقفت عن النبض.

ها هي ذي خليلة درب عمره تقف مبتورة العود منتظرة إياه لمواراة رفاتها خلف ساتر الزمن.

خانته ساقاه وسقط أرضاً واضعاً كلتا يداه على فمه الذي راح يتراقص محموماً لإخراج الكلم ولكن هيهات. ما كان يخرج كان حطاماً لا شبيه لها في جل اللغات. زحف نحوها حتى تمكن من إحاطة ما بقي من قاعدتها بكلتا ذراعيه.

قال مختنقاً:

- كلا، إن هذا لم.. هذا لم..

حشر الكلم حشراً في حنجرته وأغرورقت عيناه بدمع القهر والمعاناة وهنا تقلصت عضلة قلبه وأقلعت عن ضخ الحياة إلى جسده. إرتج جسده كالزلزال متشنجاً وأحكمت رئتاه غلق منافذها.

إرتخى جسده ثانيةً. ولكنه كان قد فقد جوهر ما يملك.

فقده كي يهبه إلى حبيبته..

فقده كي يفديها به..



– إنه الرابع والعشرين من يناير، بقى ثلاثة أيام على امتحاناتك.

-ومن خبرك أني لا أستذكر حيث أنا؟ أقسم أني لم أدفن دفناً في الكتب مثلما دفنت نفسي الأيام الأخيرة! إن ذهني لم يكن بهذا الصفاء منذ وضعتيني على سطح البسيطة.

صمتت لحظة متصعبة باحثة علن الكلمات المناسبة قبل أن تعاود المحاولة:

– ولكن عيناي لم تبصرك منذ عشرة أيام، فؤادي يفتته الشوق لرؤياك، شراع الحياة خبا بالدار منذ رحلت إلى هذه المدينة التي باتت تقبض على مقود حياتك.

– أمي، منذ جئت ها هنا وأنا أستشعر بإشعاع الحياة يتخلل كل خلية في بدني، الحياة التي لم أستسيغ حلاوة لذتها منذ أدركت الوجود من حولي، إن سنون حياتي المنصرمة كانت عدماً وأنا حسبتها حياة!

هنا تذكرت هي كم كانت رديئة في فن الإقناع، هي التي لم تفلح في إيجاد أبسط الكلمات لإقناعه بدخول إمتحانات العام الماضي، لذا لم نجد سبيلاً سوى سؤاله سؤال المبادرة الخاسرة الذي تختتم به كل إشتباكاتها الرخوة معه. سؤال ينقذ ماء وجهها كأم. قالت:

– والدروس التي ستفوتك؟ لديك حصة غداً.

– الدكتور سيتغيب غداً إستعداداً لحفل زفاف كريمته.

تنفست الصعداء شاعرة بالراحة إذ قامت بجل واجبها مردفة:

– حسناً يا بني، ولكن عدني ألا تتخلف عن إمتحاناتك هذا العام.

– لا تقلقي، ليس شريطةً أن يعيد التاريخ نفسه كما يزعمون.

- حسناً إغلق قبل أن أصفعك على صدغك.

- أو لست عصفورك المدلل؟

- لذا لا أبتغي صفعك

قبلها ثلاثاً قبل أن يردف:

- إنتبهي لنفسك.

- وأنت كذلك يا بني، لثم نفسك بسميك الملبس، إن مناخ الإسكندرية لا ينفك يغدر بأبنائها شتاءاً.

- أنا محتاط بالفعل. أراكي بخير يا أماه.

- وأنت يا بني.

- لا إله ألا الله..

- محمد رسول الله.

- إلى اللقاء.

- إلى اللقاء يا بني، صحبك الله.

أغلق محموله ووقف ملتقطاً أشلاء طاقته. فرد ذراعيه وجزعه محدثاً تلك الطقطقة المحببة للنفس لدى كل المكدودين مزهقاً الخمول عن روحه.

إنتهى من صنع فنجان القهوة. إتجه نحو باب الشرفة مرتشفاً رشفته الأولى من الفنجان.

ضرب سوط جلاد الصقيع عاموده الفقري بلا هوان أو رأفة بجسده الدافئ وأشرعت أنفه ورئتيه أبوابهم لاستقبال رائحة الطحالب البحرية السابحة بالجو. تنفس ملئ صدره وأخرج لفافة تبغ محلي من علبته القابعة في جيب بنطاله واستند إلى السور الأسمنتي حيث قبعت بضعة أكواب فارغة أخرى منتظرة من يرفعها.

رمق الشارع الهادئ المظلم المتفرع من حي محرم بك. الشارع الزلق اللامع إثر أمطار البارحة. الشارع الذي رمقه من أسفل بدوره راجياً إياه بالتدثر في معطفه الشتوي المفضل، فالنزول، فالترجل إلى شاطئ البحر فالجلوس في أقرب مقهى محتسياً كوب الشاي الساخن الثقيل.

هنا تفكر: هل يدرك أبناء قاهرة ما يفوتهم في هذه البقعة الإلهية من الأرض؟ أولم تسمع إبنة المعز بفتنة صديقتها إبنة المقدوني التي تستثير بها الولدان في شتاءها فقط ليرتموا في جذوة جسدها طلباً للدفئ؟ إن خدرها لسريع الذوبان في العروق، سريع الذوبان إلى حد لا يُصدَّق.. لدي عذوبة وحلاوة حزنها في الأفواه

تأثير فني كفيل بإيقاظ حركة جديدة من الحركات الفنية التي غزت العالم في العقود المنصرمة.. كفيل بإلهام ثورة فنية تستبيح أراضي العالم أجمع.

أمواجها جديرة بإيقاظ شعب كامل خبوت حياته وخبت قدرة إنتاجه، لإستنباط حضارة جديدة تجد مكانها بين كتب مكتبتها العملاقة.

سبح فكره في عمق بحرها متفكراً في إبنة الإسكندر.. الإسكندر الذي سمع صليل أجراسها حيث ترعرع في بلاد الإغريق، سقط تحت تأثير تعويذتها فأصابته لوثة البحث عند مرقدها، أبحر وأبحر حتى عثر على جنة البحر المتوسط المسماة راكتوس، فحارب الفرس وإستمات في مجابهتهم وطردهم. طارحها الغرام حتى أسفرت العلاقة عن ولادة طفلته البكر التي أسماها بإسمه: السكندرية، وعهد بها إلى مهندسه الخلاق دينوقراطيس الذي صنع منها ثكنة عسكرية محصنة من أبالسة الأرض. ثم جاء البطالمة، وأحالوها إلى مملكة من العمدان الجرانيتية والرخامية والحدائق الملكية، وأهداها الإمبراطور أبهظ هداياها: عامود سواريها،

واشتعلت حدائقها الملكية ساطعة بلهيب كليوباترا السابعة وماركوس أنطونيوس وتشربت أنسامها مسك حبهم الماجن. شيد البطالمة مكتبتها العملاقة ذات السبعون ألف كتاباً وبردية، ثم إحترقت في أتون الصراع الروماني البطلمي.. لطالما اصطرع الغزاة للفوز بقلبها الكبير، القاسي على أبناءها رغم هذا. قصبة الديار المصرية التي شهدت ولادة إقليدس، أبو الهندسة اليوناني، وهيرون، العالم اليوناني الذي إخترع أول مولد لطاقة الرياح. شهدت أرضها مولد ومقتل هيباتيا، عالمة الرياضيات والفلسفة الجميلة وإبنة العالم المصري اليوناني المبجل ثيون.. هيباتيا التي قتلت على أيدي المسيحيين المتطرفين. كان يستشعر شبحها الحزين يجوب المسرح الروماني الذي استمع إلى صوتها العذب المتخم بالعلم والحكمة وشهد على جريمة إغتيالها الشنيعة.

غلبه التساؤل: أنى يعلم أبناء سيدي بشر والعصافرة والمنشية وغيرهم، إن شوارعهم قد اكتنفت عظماءاً كالإمام الشاطبي وابن خلدون والحافظ السلفي تحت سقفها؟ لابد إن الكثير والكثير مما توصلوا إليه كان بفعل إغترافهم من منبع هذه المدينة المبجلة

نظر لأعلى فقط ليبصر السماء الملبدة بالغيوم الأرجوانية الليلية. فقط تحت هذه السماء الغائمة، الشبيهة بإحدى لوحات الفاتيكان أو السستين المعلقة، فقط تحت هذه السماء، ولدت المسيحية سراً في مصر ثم بدأت تحبو وخطت أولى خطواتها بمحاربة الوثنية وشيدت حصونها إلى أن وصل صوتها الزاعق إلى أراضي القبط أجمعين. فقط من أجل هذه الأرض السابحة، أشقى البيزنطيون عمرو بن العاص وعركهم في أكثر من معركة حتى أرسلهم إلى اليم. صمدت وتحاملت على نفسها وجبرت مفاصلها المهشمة إثر زلازلها التي أودت بحياة فنارتها الجميلة، تحاملت على نفسها مضمدة قروحها شاهرة درعها في وجه الطوفان الصليبي.

على طرف لسانها، بنى السلطان المملوك قايتباي قلعته الشهيرة لتبيت درعاً يتلقى السيف العثماني، ثم سقطت بين أيدي بونابرت الآثمة وإغتصب أراضيها بشهوته الحارقة حتى أهرق دماء عذريتها في جل طرقاتها وأغرورقت سماء سحابها بدموع الشرف الهالك إلى أن شحذ العسكر الإنجليز سيوفهم العاوية وضرب بها أعناق الفرنسيين وتكفل بحرها بتطهيرها من دماء الغزاة. وفي زعفرانها

وقصور منتزهها، سكب (فاروق) الغر المئات والمئات من خمور الغزل ورحيق العشق في آذان عشيقاته وفي رياض القصر الغناءة، وعدهن بآلاف وآلاف الوعود تحت أشجاره الرشيقة الحانية.

إسترجع في لبه مشهد البحر الذي رمقه هذا الغروب فاغراً فاه متبلعاً شمس الغروب الخجلة الشفيفة، شمس الإسكندرية المتشحة في حشمة غيومها الداكنة في إستحياء ودلال.. بحرها الذي ما انفك مداعباً شاطئها، مغازلاً إياه تارة بعاطفة العاشق المشتاق لفتاته، وتارة أخرى، يلطمه ويصفعه بلا هوادة كأرخص عاهرات (بانكوك).. لكم حسد أبناءها الذين تلقوا هذه اللطمات الماجنة الحلوة ومسحوا رذاذ بصاقها المالح عن وجوههم برضا وإمتنان.. لكم حسدهم لإكتنافهم المطاعم ذات الطابع اليوناني والإيطالي، رامقين من نوافذها المشرعة لوحة بحرها الغادر ذا الأمواج الملفوفة المجدولة كشعر عذراء لم تذبح براءتها بعد. كان يرى بعين الخيال أبناءها يحتمون من غدر شتاءها، وغضب نوّاتها بأكواب الشاي داخل مقاهيها التي لابد أن الخواجة (يانّي) قد شغر الحانوت المجاور لها خمراً، والخواجة (ديمتري) شغر هذا الحانوت شاياً

وخواجة آخر آنس ذاك المقهى. مؤكد أن ملايين العشاق قد أنجبوا علاقاتهم أو شحنوا قلوبهم هياماً بمرأى بحرها، مؤكد أنهم أوقدوا حطب مشاعرهم ونيران قلوبهم بدفئ حضنها الكبير المتسع للاجئي العالم أجمعين.

بتر أمره وعقد عزمه..

توجه نحو الخزانة وسحب معطفه كي يسدل أذرعه في أغواره السوداء، أرفل كوفيته حول نحره وإنتعل حذاءه ذا العنق الطويل.

كان هذا قراره. لابد من إستراق العناق الأخير من عروسه قبيل رحيله. لابد من إثلاج قلبه بنسيمها الرصاصي البارد وإشباع مقلتيه مختزناً داخلهما مشاهد شوارعها الندية الزلقة، إن العاشق لا يهجر عشيقته قبل أمسية مشتعلة تحرق غابات الذكريات بلهيب الوداع ونيران الشوق المستعر. كانت حواسه المرهفة كقطقد استشعرت هدير بحرها وزلزلة إرتطامه بصخورها.. أصاغت أذنيه السمع لهذا النداء الذي قد يكون نهنهة كليوباترا أو إستغاثة هيباتيا أو زئير هرقل عظيم الروم.

تُرى.. من الذي قص له عن النداهة في طفولته؟

فتح الباب وتيقن من وجود بطاقته بالحافظة. هبط الدرجات عدواً محاذراً ألا يخونه حظه في درجة نخرة أو مشطوفة الحافة تطيح به إلى سرير المستشفى الحكومي حيث يستأنف آخر ما تبقى من رحلته مستنشقاً المطهرات والصدأ المتفشيان في الجو كوباء التيفوس بأوروبا في القرون الوسطى، إلا أنه تمكن من الوصول إلى مدخل العقار دون خسائر.

خطا خارج العقار.

إعتصر زمهرير (يناير) مفاصل جسده، وتكفل سرطان الصقيع بغزو نخاعه فقط لترتج روحه كزلزلة الواقعة. أسدل جفنيه وشهر أنفه نحو السماء. سحب نفساً عميقاً من المحيط البارد إلى أغوار رئتيه آخذاً دورته بين أوردته قبيل أن يلفظ أبخرته إلى المجال الخارجي مرة أخرى ليذوب في الوجود ثانية. نبض فؤاده بالاطمئنان. أزته نفسه بالثقة.

تلصص قمر الأرض الوحيد خلسة من بين الغيوم القرمزية.

كان هذا حين أبصرها..

لا يعرف من هي، ولا من أين جاءت ولا إلى أين تعود كانت ترقص رقصاً بطيئاً، سامراً، ناعساً يطيب للناظرين ويسكرهم، متمايلة ذات اليمين وذات الشمال.. رقصاً ناعماً حريرياً كأوراق الورد.

جسدها الناحل اتقد بلهيب الحياة ملتمعاً كآلاف النجوم، صريحاً كمئات الشموس يتشرب ضياء العامود الليلي الساهر على حراستها من كل مانعي الخير أو أعين الحاقدين..

جسدها اللين المنساب كشلالات الفيوم يأتي برقصة ساحرة غير مذكورة في فولكولور الوجدان البشري منذ أشعت الشمس مجموعتها بشعاعها.

شعرها الأسود الطويل كليل الشتاء يتوهج كألسنة شموع قداس عيد الميلاد، يتموج مصطخباً كبحر المعمورة، مساقطاً من أطرافه ندف ندية كريستالية تتبعه إلى حيث يتمايل رأسها، تحيط بها هالة بيضاء أنارت شعاع المعرفة للعقول الغافلة..

عيناها المسدلتين تحت غمامة شفيفة من أشجان ومعاناة جيل كامل تحكي مئات الحكايات عن مئات الأصدقاء والصحبة الدافئة الحبيبة التي ذرفها الزمان كذرات الرمال..

غامت رؤياه وتاه فكره إلا من فكرة واحدة، أن يمتد جذع عمره كي يحكي لأحفاده عنها ذات ليلة في مخادعهم، أو كي يقص جمالها لأمهر الفنانين ليصنع منها لوحة تغار منها "موناليزا" دافنشي أو "جالا" دالي أو "دورامار" بيكاسو.. أو لمثّال يمثل لها تمثالاً تحقد عليه "كساندرا" أو "فينوس" أو "أثينا".

كان وجودها دفيئاً، طيباً، محسوساً.. إذ تمنى أن تكون وهماً.. وهماً كنبوءات (نوستراداموس) ولكنها لم تكن، إذ كان الوجود يضج حيوية من محيطها.

كان يعلم من هي.. شعر بحقيقتها..

لقد جاءت بنفسها، جاءت إليه متمثلة في هذه الهيئة..

إقترب منها.. صبا إليها وهفا نحو جمالها..

عزفت هي عن الرقص وسلطت سراج عينيها المنير نحوه..

تبسمت له بسمة رقيقة هبت لأنفاسه جذوة الحياة والميلاد المتجدد لروحه الزاهقة.

مدت يدها البللورية الدقيقة نحوه..

تناولها قبل أن يستشعرها تنقل كيانها إلى حبل وريده.. شعر بروحها تسري في عروقه معيدةً الحياة إلى دمه المتجمد.

مالت نحو أذنه وهمست.

كانت لغة قديمة غابرة دفنت تحت جبال الحضارات المتعاقبة.. لعلها كانت الأرمينية أو السريانية أو الإغريقية.. لغة تاريخية تليق بكينونتها. لم يكترث بما همست لأن قلبه قد فقه ما قالت دون الحاجة إلى ترجمة.

- أتصاحبني على أن نسبح سوياً؟

بلا وعي وبإرادة مسلوبة، أومأ برأسه الخالي الوفاض.

ترك نفسه لها، أمنّها على كل ما يملك من الدنيا.. تتبعها دون أية مساءلة..

مَشوا سوياً في الأزقة المبتلة الزلقة متجهين إلى المكان الوحيد على وجه البسيطة الذي سيجمعهما أبداً..

وكان هديره يعلو من بُعد كلما تقدموا..

كأنه استشعر خطواتهم نحوه..

الفهرس

نفوس



باهر بدوي

الغيوم تتلبد أمام عيناي. العرق البارد يواصل رحلته عبر وجنتي. زوجتي تقول شيئا ما. ولكن عقلي غدا بعيدا.

إن "أشرف الصباحي" أضحى كاتبا مشهورا.

"أشرف الصباحي" هو ضيف لندوة أدبية يعقدها حزب "الوفد"..

زوجتى ماتزال تثرثر حواري. أظنها تتسائل عن قطرات العرق المحلقة علي جبيني.

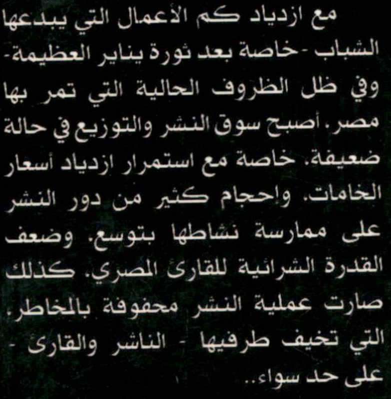
وهنا أضيئت خلايا ذكرياتي. و سافر لبي إلى بساتين الماضى.

لقد هزمني "أشرف الصباحي" ثانية.

أنا أمقت "أشرف الصباحي".

إسمه يدوي فى أذني كهزيم الرعد و يرج عقلي كالزلزال. ولم لا أكرهه وهو الشائبة العالقة بالهواء التي تهتاج لها رئتاي كلما جاهدت للتنفس.
ذلك الفتى الفاسد بقامته الشامخة و بنيانه المتين.
ذلك الفتى الذي ما انفك عن هزيمتي كلما شيدت جدار النجاح.





مع ازدياد كم الأعمال التي يبدعها الشباب -خاصة بعد ثورة يناير العظيمة- وفي ظل الظروف الحالية التي تمر بها مصر. أصبح سوق النشر والتوزيع في حالة ضعيفة. خاصة مع استمرار ازدياد أسعار الخامات. وإحجام كثير من دور النشر على ممارسة نشاطها بتوسع. وضعف القدرة الشرائية للقارئ المصري. كذلك صارت عملية النشر محفوفة بالمخاطر. التي تخيف طرفيها - الناشر والقارئ - على حد سواء..

وكانت الدار نفسها من الدور التي تأثرت - وبشدة - اقتصاديا. ومع اضطرارها لإغلاق باب تقديم الأعمال هذا العام. فكرنا في حل بديل. هو النشر لمن يستحق.. وتطورت الفكرة كثيرا. إيمانا من دار ليلى (كيان كورب) بأهمية الحركة الثقافية. وحرصا منها على استمرارها في دورها. وإيمانا منها - كما عهدتموها- بالشباب الموهوب..

ليصبح بين أيديكم. هذا الكتاب.

الناشر

